عصير الرمان

قصص قصيرة خيالية

عباس مدحت البياتي

عصير الرمان

قصص قصيرة فانتازيا

عباس مدحت البياتي

الإهداء:

أهدي كتابي إلى أحبتي الذين شاركوني الحياة، وبالذات لزوجتي الحبيبة وأبني الغالي، ولكل الأصدقاء والمعارف، وللقارئ العزيز.

عباس مدحت البياتي

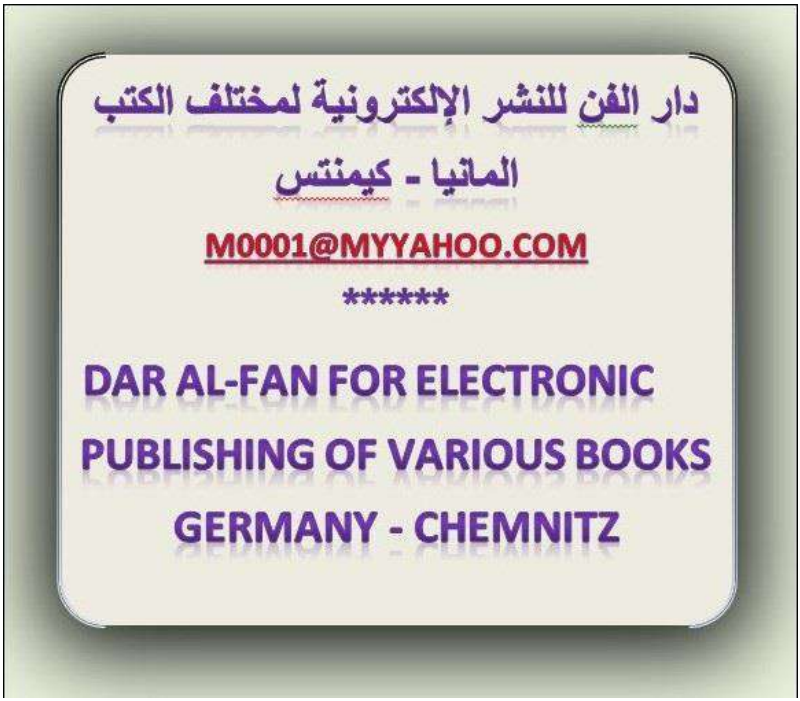
دار الفن للنشر الإلكترونية لمختلف الكتب
المانيا - كيمنتس
M0001@MYYAHOO.COM
******
DAR AL-FAN FOR ELECTRONIC
PUBLISHING OF VARIOUS BOOKS
GERMANY - CHEMNITZ

الكتابــة هــي لغــة الحيــاة، لغــة التواصــل، كزقزقــة العصــافير تضــفي علــى صــبح الثقافــة بهجــة، الكــل يستســيغ ســماعها. الكتــاب يتضــمن قصــص شــيقة معظمها من وحي الفانتازيا، وددت بها أستبيح ذهن القارئ ومشاكسته بفيض أفكاري.

×××××

العقل والمنطق يقودان الفرد في خط مستقيم من نقطة (أ) إلى نقطة (ي). أما الخيال، فأنه يطوف بالفرد في منحنيات جميع أحرف اللغة.

عباس مدحت البياتي

المضمون

i. عصير الرمان.....6

ii. سمط الجنون..... 25

iii. هسيس الليل..... 45

iv. جمانة 56

v. أنذال.....67

vi. بقايا الكأس 90

vii. غيرة القواد.....96

viii. البصمة.....106

ix. كيد العقارب.....122

x. الكابوس.....138

xi. الكوب 147

عصير الرمان

لأول مرة في حياتي أدخل مدينة (ج) الصينية، أو بالأحرى أدخل مدينة غريبة الأطوار بناسها وطبيعتها وقواعدها وقوانينها، حيث تختلف كليا عن مواصفات المدن الأخرى المعروفة بزحامها وعمرانها وحِرفها وتنوع منتجاتها... لا أعرف السر في ذلك الاختلاف، ولكن يبدو لي عدم اهتمام الدولة والشركات بها، حيث تتصف المدينة بقلة الأسواق، وغرابة الوجوه وضعف الاهتمام.

على الرغم من أني كنت قد دخلتها بشكل عبثي دون متقصد، وذلك بعد أن أنحرف فكري عن أصل اتجاهه، فسلكت مسلكا مغايرا لما كنت أبغي، لتشعب الطرق وتداخلاتها من جهة، وتشابه الأسماء وجهلي اللغة الصينية من جهة أخرى، فاختلطت عليَّ تشابه الأحرف وأسماء المدن، فتهت بين مدينة (ج) التي دخلتها ومدينة (ح) التي كنت أقصدها.

للتشابه الدقيق برسم الأحرف؛ انحرفت عجلة التكسي بي مع انحراف مسار فكري، أودت بي في دروب معرجة نحو عمق المتاهة، فلم أشعر بذاتي إلا وأنا في وسط مدينة نائية، عبثية، غريبة الأطوار، منعزلة، ميتة.... فقادني الفضول لأكتشف حيثياتها قبل أن أعود أدراجي لحيث أبغي.

حين دخلتها لمست غرابة لونها الرمادي، اختلاف أجناس ناسها، ربما لنأيها وبعدها وانزوائها؛ حتى أني توقعتها لا تنتمي للحوض الصيني بشيء، تلك المشبعة بالفتنة وغرابة العمران والتطور التكنولوجي وزحمة الأسواق.

وجدتها مدينة بسيطة جدا، قديمة، خربة، لا تنتمي للنمط الصيني بشيء، أسواقها تخلو من تنوع البضاعة. لم أرى فيها ذلك الموج الهادر المتدفق من الزخم البشري الذي يروج كتسونامي في شوارعها. ولا هجست بجاذبية اسواقها المكتظة بتنوع منتجاتها، لم المح ناطحات سحب ولا أبراج ضخمة، ولا غرابة المأكولات وتنوع الفنادق فيها كما هي الصورة المعروفة بها الصين...لا شيء فيها بهيج قط.

إذا لابد وراء ذلك من سبب أعطاها صفة الإهمال تلك، كأنها قد تخلت عنها الدولة تماما، فوقعت أسيرة الظرف والنأي والتهاون والتفريط.

أشعر بأن عدد نفوس المدينة أقل بكثير من نفوس أية قرية قابعة بجوارها، لقلة الناس المتجولون في الشوارع والعاملون بمرافق المدينة. ما شاهدته بأم عينيَّ؛ لن يزيد عدد المتجولين في الأسواق عن بضع أفراد من البشر، كأنَّ المدينة على ما فيها مهجورة، منبوذة، إلا من بعض المارقين والمستفيدين الذين تقطعت بهم السبل، فباتوا ظالعين في طرقها وأزقتها كالحمقى والمشردين.

كما أني لمست ملامح الوجوه لا تنتمي لتلك الوجوه الشاحبة ذوات العيون الصغيرة والأجفان المسحوبة، والتي تفترش وجوههم أنوف فناطيسُ وأفمام واسعة. تهجس بالوجوهٌ مركبةٌ من خليط متداخل من أجناسِ وأعراق إلا ما ندر، أشعر بها مدينة لا تمت بصلة للعرق الصيني البتة.

وقد أوعزت ذلك إلى أنها دولة كبيرة مترامية الأطراف، فيها شعوب وأقليات وأجناس مختلفة، فاختلط علىَّ الأصل والصورة، فالدولة يقطنها أكثر من مليار وربع من البشر.

خلال تجوالي في شارع قديم شبه خال من البشر يتمركز المدينة؛ راقت نفسي أن أشرب كأسٍ من عصير رمانٍ معروضٍ في قوارير شفافة في صدر كافتيريا ج، والتي تدل عليها قطعتها المشعة بأضواء الفلورانس، وددتُ أن أروي ظمئي بقدحٍ من ذاك العصير القرمزي المبهج للنفس، لجاذبيته ورونقه وزهوه وطريقة عرضه بقوارير زجاجية نظيفة، لماعة، مصفوفة على رف جانبي بمواجهة الطريق العام الذي كنت أتجول فيه بحثا عن فندق يأويني.

للحر الذي شهدته في ذلك اليوم، ولصفاء لون العصير القرمزي وطريقة تصنيعه بمكينة إلكترونية حديثة؛ لم استطع أن أقاوم ظمئي، حيث أني لم أشهد شبيها له، فرغبت أن أروي نفسي بكأس منه وبشيء من الاشتهاء ودناءة النفس.

طلبت من البائع قدح عصير، فطلب مني أن أدفع قيمته عبر مكينة حسابة نقود آلية موضوعة أمامي.. حينها وجدت

سعر قدح العصير معروض بأربعة ماوات، فأعطيت البائع ورقة نقدية بقيمة خمسة ماوات، لكنه أبا أن يتقبلها مني، معزيا ذلك إلى أن الآلة لا تتقبل أن تأخذ أكثر من قيمة العصير، وليس مسموح للبائع أو(الكاشير) صرف الأوراق النقدية مخالفة للقواعد، حفاظا على سمعة المحل من الابتزاز والتحايل والسرقة.

ولتسهيل للأمر؛ عرض عليَّ ورقة إعانة مطبوعة بمكينة جانبية خصصت لهذا الغرض، طالبا مني أن أدفع قيمة العصير في البنك الخردة المجاور، مصدقا قيمة الدفع على حسب ما أشار إلي الكاشير، لأعيدها له كي يكون في مأمن من التلاعب، وكي يستطيع مساعدتي وتقديم قدحا من العصير لي مقابل ختم تصديق البنك.

بتلك الطريقة يمكنني أن أستلذ بشراب ذلك العصير الطبيعي الذي تاقت له نفسي، لمنظره الزاهي، الجذاب، المثلج.

أخذت الورقة منه، لعطشي وللسعة الحر؛ هممتُ في البحث عن بنك الخردة، لأطفئ شرر ظمأي ولظى الحر المشوب في ثنايا الجسد بطعم ذلك العصير المنكه.

مضيت أبحث عن البنك في تلك الطريق الخالية من البشر إلا ما ندر، لا اعرف حقيقة اتجاهي، صرت أسأل ذاتي المأسورة؛ ترى أين ذهب شعب المليار نسمة؟ ألا يوجد من يرشدني لغايتي؟

خـلال سـيري صـادفت طفـلا محمـر الوجـه، يبـدو عليـه تلميـذ مدرسة وهو يحمل حقيبة على ظهره؛ سالته قائلا:.....

- بـالله إلا تـدلني أيـن يقـع بنـك الخـردة، لقـد أحتـرت فـي العثور عليه، أود تصديق هذه الورقة.

فـي البدايـة تحمـس لمسـاعدتي، وعنـدما قـرأ الورقـة أرشـدني إلـى رجل أسمراني اللون كان يمشي خلفي.

اتجهـت إلـى ذلـك الرجـل الثلاثينـي، ران لمسـاعدتي، سـايرني ذلـك الرجـل وكأنـه ود اكتشـاف مخـزون جيبـي مـن النقـود، حتـى أظلَّنـي وأوصـلني لمكـان يبتعـد بحـدود مـائتي متـر عـن أصـل المكـان الأول، اجتزنـا خلالهـا زقـاق قـديم وواد عـريض، تمـر بـه جادة قديمة، متكسرة البلاط.

عنـدما عجـز عـن معرفـة مـا أملـك؛ تركنـي فـي تلـك البقعـة دون أن يبـين لـي موقـع البنـك، تركنـي أتلفت يمينـا وشـمالا بـلا إرشـاد، فـي الوقـت الـذي بـه عجـز عـن لـوي ذراعـي واسـتلاب مـا فـي جيبي. كأنه التمس شدة حذري وخوفي منه.

بعـد معانـاة وجيـزة صـادفت رجـلا أربعينينـا يرتـدي نظـارات سـوداء وسـترة صـيفية أنيقـة بـذات اللـون لتـوائم لـون نظارتـه، كـان شـبه كفيـف البصـر، مسـتندا فـي مشـيه علـى ذراع شـاب عشريني يرافقه.

لكياسـته ووقـاره الـدال عليـه منظـره؛ تيقنـت مـن اسـتقامته ونبـل اخلاقـه، تلـك مـا دلـت عليـه هيئتـه التـي تختلـف عـن الـذوات الـذين

التقيتهم قبل لقائي به. من مظهره اللائق وشعر رأسه المجعد وساعة يده الباهظة، هجست به رجل متمكن، مغتن.

اتجهت إليه طارقا بابه، سألته أرشداي طريق بنك الخردة.. يبدو ذلك الشاب الذي كان معه أبنه، لتشابه الملامح بينهما..

. وبمجرد أن سالته فاجئني بسؤال غريب:....

- هل معك حقيبة؟
- كما تراني لا أحمل حقائب، مجرد أريد ختم هذه الورقة، لأشرب عصير الرمان... ترى أين يقع بنك الخردة؟ لقد تعبت من البحث عنه.
- ماذا تقول؟؟.... البنك وقع!...هل وقع البنك فعلا؟ متى وقع.. متى حصل ذلك؟
- يا أخي ما بك تؤول الكلام، لقد سألت أين يقع البنك، لم أقل بأنَّ البنك قد وقع. والحقيقة أنا لا أعرف سر هذه الورقة، كل من يراها يتوقعها ورقة نقدية بمليون يوان، وهي بقيمة أربعة ماوات فقط.
- كم قلت ؟.... مليون؟؟؟؟ لا لا لا مستحيل، لقد شممت رائحة المليون، أأنت تحمل في جيبك مليون يوان؟ أين هي؟
- لا إله إلا الله، ما بك، جننت؟ عن أي مليون تتكلم؟ خذ الورقة وأقرأها لتفهم.

أخذ الشاب يقرأ الورقة، ثم أحاطاني من ابطيَّ.. حينها شعرت بنية الغدر في وجوههما، وبعد وشوشة دارت بينهما بلغة لم

افهمها لازماني بحجة إرشادي، ومن ثم فضلا أن ينتظرا قليلا قرب منعطف في جهة الوادي المهجور. كانت الشمس قد أزفت ترتعش في انحدارها نحو دارة الغروب، قبل أن ينث الغسق رماده في الأفق، وذلك بعد أن تجاوزت خط الزوال الأخير قبل هنيهة زمنية.

حين سمعني الرجل أقول كلمة مليون، شك بمسعاي، وكردة فعل سريعة منه سألني: كم قلت؟ مليون؟ أأنت تحمل في جيبك مليون يوان؟.....

فسر كلامي بأني لا بد أن أكون من الميسورين، وخاصة لباسي ووجهي يدلان على أني ميسور الحال. طالما أنا غريب؛ فلابد أن أحمل في جيبي ما يعينني على السفر والمشاوير. لذا توقع بأني أمتلك هذا المبلغ طالما تفوهت بكلمة مليون، لأن الفقراء لا تطفح على ألسنتهم هذه الكلمة بتاتا، وأن طفحت ستطفح كبارقة رقمٍ في تصريف عدد، وليس كقيمة ما.

إذا أنا غني في نظر هذا الأعمى، ثم أنا غريب. لذا بذاتي كنت قد صنعت لهم فرصة استغلالي وسرقتي، الفرصة سانحة أمامهم، ولابد من اقتناص أنصاف الفرص، لأن الفرص لن تكرر ذاتها..... لابد من استغلال الظرف بكل ما فيه من شبك، طالما لا شيء يدل على أني إنسان عادي في نظر هؤلاء المجرمين.

ففي اللحظة التي كانا بها يبحثان عن الفرصة، كنت قد صنعتها لهم بتفوهي وعبثي الساذج، الغير مقصود. كأني حين كنت أسأل عن البنك، كنت أكشف لهم عن هويتي ومخزون جيبي. كنت أبين لهم طبيعتي وغربتي ليلتصقوا بي كالتصاق العلك بالحذاء.. لأن أهل البلدة لا يحتاجون إلى السؤال، فهم يعرفون أين تقع البنوك ويدركون كل شيء عن المدينة، لا ينحدرون لنزق الإرشاد.

بانزلاقي وضعت نفسي في صرة الشك ككنز مبهم، في بقعة خالية، يسهل بها الغدر وقنص السذج كيفما يشاؤون. حيث تنفيذ صفقة السرقة لا تحتاج إلى خبرة، وخاصة في بلدة مثل هذه البلدة النائية، لا تحتاج إلى إتقان ودراية، ولا إلى تخطيط وتمعن ونحن نقترب من ظلف المساء، والتي تشي إلى سهولة إتمام الصفقة بيسر تحت جنح الظلام.

في الحقيقة الفرصة متاحة أمامهم، بل بلمعانها باتت تستهويهم، وقد تكون فريدة من نوعها ولا تعوض في هذه المدينة. وأني كنت قد بلغت عن ذاتي، لأكون الهدف الذي يبحثون عنه دون عناء، ودون أن اقصد ذلك..

في حقيقة الأمر كنت أحمل في جيب سري مبلغ محترم من المال، كأنَّ حدسهم الشفيف كان في محله.. لذا طلب من الشاب ملازمتي، وهو الذي يظهر عليه من ذوات الخبرة في قطع الطرق وجز الجيوب، وقد بان لي محترفا في شخصيته.

حينها اكتشفت بأنهم من جماعة قطاعي الطرق ولصلصة الجيوب، من أصحاب السوابق المحترفين، لتزمتهم، واهتمامهم الكبير بشأني..

كان الشاب جلدا، قاسي الملامح، ناشف الوجه، حاد النظرات، صفاته تنم عن طابع غدر تطبع به. فيما ذات النظّارات السوداء كان خشنا، قويا، ذات شارب هتلري، يحمل تحت أبطه حقيبة صغيرة سوداء كتلك التي تستخدم كحافظات أوراق، فيما كان الشاب يعلق على كتفه الأيمن غرارة من الخيش، كحقيبة النساء يحمل فيها ادوات عملهم.

قال لي الشاب؛ الذي يبدو يحمل في يده مطواة صغيرة، مشيرا بيده إليَّ بصيغة الأمر.

- أجلس، أجلس هنا ولا تتحرك....

جلست ببقعة في منتصف الطريق، مستندا على جدار طيني من طوب اللبن يرتفع بعلو متر. جدار قديم، أثّرت على هيكله التعرية، الأمطار المسيلة أوشلت نضارة واجهته بزخارف كثيرة كمجموعة من الثقوب المعرة، كثلم عقارب وثعابين.

جلست وجلس ذات النظارات على يميني، فيما أمتد الشاب بيننا على ظهره، واضعا راسه في حجري، مركبا ساقيه فوق بعضهما البعض، ساحبا قدميه لطرف عجيزه بطوية زاوية قائمة. كان يرتدي قميصا شفافا بلون خضرة الحشائش وبنطلون جينز أزرق.

أخـرج الشـاب مـن حقيبتـه قلمـا جافـا أبـيض اللـون، غريـب الشـكل، حيـث تمكـن مـن توريـث راسـه المـدبب بقدحـة زنـاده، أرتفـع منـه دخـان أبـيض، فيمـا كـان طرفـه الثـاني يحتـوي علـى نـابض لـين (زمبلـك)، أشـبه بمحايـة قلـم الرصـاص، بلـون النيكل. قال لي بصيغة الأمر:....

- خذ دخن....

خوفـا منهمـا وضـعت رأس النـابض علـى لسـاني، وإذ بـي أشـعر بـه كأنـه قـد أفـرز سـائلا غريبـا فـي فمـي، كزيـت الخـروع، أو مخـدر آلام الأسـنان.. بمجـرد أن لامـس لسـاني أنتشـر قـيح ذلـك الزيـت فـي فمـي، هجسـت إلـى جانـب لسـعته فيـه بـرودة منعشـة، عطـر فمـي برائحـة قريبـة مـن رائحـة النعنـاع المـنعش، كمـا شـعرت بـأن نفسـي قـد خـارت واسـتهامت، فيمـا تراخـى الجسد علـى وقـع ذلـك الطعـم. هجسـت بحالـة انتعـاش انسـابت فـي الذهن والجسد لبرهة.

شـعور غريـب راغـت بـه الـنفس، لـم أجربـه مـن قبـل.. حينهـا عرفـت بأنَّهـا سـيجارة الكترونيـة تحتـوي علـى نـوع مـن المخـدرات، ود أن يـوهمني بهـا ويـذهب عقلـي كـي أقـع فريسـة سهلة بين أيديهم، كي لا أستطيع أن أنفذ بجلدي من قبضتهم.

لـذا تجنبـت أن أضـع السـيجارة فـي فمـي بحجـة قرفـي منهـا؛ لألا أفقد ذهني ووعيي وتوازني، ربما أفقد كياني.

كنت أشبه بالمسطول وأنا قابع بين أياديهم، لا أعرف طريقا للخلاص والهرب، كنت منهمك في التفكير، أترقب الفرصة المتاحة لأنسلت من قبضتهم، أبحث عن الزلة بين طيات الزمن، أعيش حالة تجاذبات وشد نفسي، أقاوم بها القدر، متأملا أن أسحب نفسي من قيدهم وأهرب بذاتي، أو أخلق الفرصة لذاتي من واقع الظرف لأتمكن من الهرب.

بت أفكر في استغلال لحظة الغفلة، لأغرز رأس ذلك القلم في عين الشاب، عسى أن أفقئ عينه بضربة سريعة أفقده صوابه ووعيه، ثم أهرب دون أن يستطيع أن يلحق بي.

لكني شعرت بعضلات يديَّ خائرة القوى، لا تقدر على المجازفة، كأني مكبل بحبل لا أستطيع أن أجرد ذاتي منه، نتيجة الارتباك والهلع والخوف الكابد على صدري، فإذا ما فشلت في سعيي حتما سألاقي بئسٍ شديدٍ منهما.

فيما كان ذات النظارات ينظر إلي بعينيه الزائغتين كعيني مصاصي الدماء، بشاربه المحدد كشارب هتلر يزف الرعب إلى قلبي.

كنت أهجس في نظراته الجاحدة المركزة نية غدر.. أهجس به يود تجريدي من ملابسي، كان يراوغ في احتجازي، محاولا اكتشاف ما أخبئ في داخلي لأدفع لهما دية حريتي، والتي ربما لن أراها مرة أخرى.

فـي خضـم تلـك الحالـة احتضـرت إرادتـي، هجسـت بنهـايتي قـد أزفـت، أصـبحتْ وشـيكة علـى يـد هـؤلاء. أصـابني شـعور بالكسـل والهلـع، وأنـي لـن أسـلم علـى روحـي مـن هـؤلاء إذا مـا جـردت مـن مـا أملـك، لأنهـم سـوف لـن يتركـوا لجـريمتهم أثـر يتبـع خُطـاهم..... بـإطلاق سـراحي حتمـا سيعرضـون أنفسـهم للمسـائلة والعدالـة، حتمـا سـتقبض علـيهم الشـرطة، سـتلاحقهم المحـاكم والعقوبـات، لـذا سـيكون قـرار الـتخلص منـي ومـن جثتـي هـو أسـلم القـرارات بالنسـبة لهـم، لينقـذوا أنفسـهم مـن بـراثن التهمـة التـي ستكيل بهم.

وأنـا فـي تلـك المخمصـة مـن سـخط العـذاب والخـوف والتشـتت الفكـري؛ ارتجيـت رحمـة الله أن تحضـر لتحـل خيـوط العقـدة التـي التفـت علـى رقبتـي، تأملـت أن يبـزغ طـارئ فـي الأفـق يعيننـي، يسـتجيرني، لأتمسـك بغـرة عصـفه، عسـى أن أنقـذ ذاتـي مـن قبضة المجرمين.

وأنـا فـي تلـك الدوامـة مـن التشـتت الـذهني؛ هجسـت بالقـدر قـد أسـتجاب لإرهاصـاتي، فلـم تمضـي سـوى دقـائق علـى خطفهـم واحتجـازهم لـي، حتـى فاجأتنـا عاصـفة ترابيـة علـى حـين غفلـة، أُختلقـت مـن ذلـك السـكون فوضـى عارمـة، عجـة اخترقـت صـفوفنا، فتلـت ضـفيرة عصـفها فـوق رؤوسـنا. لشـدة وقعهـا وسلطانها، أرتقت غبرتها عنان السماء.

فـي تلـك اللحظـة كانـت قـد مـرت شـاحنة حمـل مـن أمامنـا، متجهـة للجهة التي كنت قد قدمتُ منها..

مع انتفاض العاصفة أنتفض الشاب بعد أن رشقته حفنة من ذرات التراب ملِئت فاهه وأنفهه وعينيه. صار يشرع في معالجة أمره من لتعة العصف، بعد أن رغت الغبرة في فمه وعينيه، صار يسعل، يبصق، يفرك جفنيه براحة يديه، لقد أنشغل بمعالجة أمره. فيما ذات النظارات السوداء كانت قد سقطت نظاراته أرضا نتيجة المفاجأة الغير متوقعة، وبذلك دون أن يدري دعس عليها وحطم زجاجها، صار يدور في مكانه أشبه بالناعور، لا يستدل إلى منفذ، ولا يعينه منجد، ولا ماسك بناصية أمره.

حينها استغليت الفرصة التي صنعتها الرحمة لي، لأمسك بشاخص ممتد خلف تلك الشاحنة.. وبوثبة القط ارتقيت على حافتها، منقذا نفسي من براثن الأيدي الأثيمة، مدركا الجهة التي آوت إليها العجلة، وهي ذات الجهة التي كنت قد انحدرت منها آنفا.

من خلال تجربتي علمت بأن لا أثق بأحد وأن أمسك لساني في طرقي، وأن أترك عادة النقر على العلب الفارغة، يجب أن أكف التفوه عن أي معلومة تخصني.

ومن تجربتي تعلمت بأن البقعة وأن كانت صينية المنشأ؛ إلا أنها تحوي على الكثير من العقارب والثعابين، نتيجة خلطة الأجناس فيها، والتي كلا منها لها ثقافتها ومآربها الخاصة بها، بعيدا عن أعين السلطة.

رجعت لجهتي الأولى، بعد فترة تسكع ساعتين من المجازفة والمغامرة، لم أدرك خلالها بنك الخردة. حينها كانت الشمس لازالت متمسكة بذوائب النهار، تزحف ببطء نجو مرأبها.

حين وصلت إلى جهة الكافتيريا، دخلت فيها، ودت أن أرجع الورقة للكاشير الذي سلمها لي، حيث أحسست بأنه الوحيد الذي كان طيبا القلب معي، وإذ بي أفاجأ بأن الشخص الذي يجلس خلف الحسابة هو ذات الشخص الأسمر الذي أظلني وقادني إلى الجهة الثانية!..

حينها دون أن أسأله؛ خرجت من المكان مرعوبا، علمت بأن المجموعة عباره عن عصابة تدور حولي، متفقة مع بعضها، خبيرة في حقن إبر التخدير لفرائسها. فلم أعد أثق بمن يحيط بي، حينها وودت أن أرجع إلى المرأب وأعود من حيث أتيت.

وأنا في طريقي أشرت لعجلة تكس مارة بقربي في ذلك الشارع الذي أمشي به، وإذ بي أتعرف على صاحب التكسي، أنه هو ذات الشخص الكاشير الذي سلمني ورقة الأربعة ماوات..... توقف يمينا وبات ينظر إليَّ وأنا أرتعب منه..

تركته ماضيا أهف بخطوات قدمي نحو المرأب مشيا على الأقدام، لأني بظني حسبته هو المدير المدبر والمخطط لتلك العملية، والتي تمكنت من أن أنجي ذاتي منها بقدرة إلهية.

خلال سيري صادفني رجل عجوز سبعيني، أشيب الراس، في لبسه وهندامه الأنيق يبدوا لي مختلفا عما لاقيت من بشر، شعرت به أنه أكثرهم هيبة واحتراما ووقارا، فقلت في ذاتي دعني أسأله عساه أن يساعدني ويحميني، عساه يرشدني وينقذني من كماشة اللصوص الدائرة حولي. علما أن عجلة التكسي كانت تسير خلفي ببطء شديد، ما أن أتوقف تتوقف، ما أن أسير تتحرك وهكذا دوليك..

لذا قررت أن أستنجد بالرجل العجوز...فقلت له:...

- بالله يا عم أشعر بأن عصابة ما تلاحقني، وأنا غريب هنا، أود أن أخرج من هذه البلدة، هل لك أن تساعدني وترشدني إلى طريق المرأب؟

أجابني بكياسة وهدوء منقطع النظير قائلا:...

- أشرح لي ما هي مشكلتك وماذا جرى معك كي يمكنني مساعدتك؟

شرحت له بالتفصيل الممل ما جرى معي، من ورقة العصير ولغاية لقائي به...حينها قال لي:..

- يا أبني أنت دخلت في المدينة الغلط...أولا لا يوجد بنك في هذه المدينة! العمل كله كان مقصودا ضدك، العصير الذي رأيته؛ لم يكن عصيرا حقيقيا، أنه شراب مخدر. يجب أن تعلم بأنه لا يوجد شريف في هذه المدينة، هذه المدينة هي منفى للمجرمين والقتلة

واللصوص والنصابين، لذلك تراها مهملة من قبل الدولة لا أحد يهتم بها، لكنها تعمل بشكل منظم ومنتظم، وبتخطيط عال.. طالما قد وصلت عندي فلا تبتأس ولا تخف، أنت وصلت لبر الأمان، فانا هنا المسؤول الأول عن هذه المدينة، أو بمثابة الرئيس المنتخب من قبلهم. لن يمسك أحدا بسوء طالما أنت معي....لكن مسألة خروجك من هنا مرهون بين يديك؟

- كيف يا عم؟ ألم تقل أنت الرئيس، هل ممكن أن توضح لي أكثر...

- نعم يا أبني، هناك قواعد مبنية عليها هذه المدينة لا أستطيع مخالفتها، وهي؛.... عليك أن تدفع نصف ما في جيبك حتى تسلم على روحك، ولو كان ماوا واحدا. هذه هي القاعدة التي نتعامل بها مع الغرباء. ونحن بهذه المبالغ ندير شؤون المدينة ومساعدة العاطلين والمرضى والعاجزين عن العمل.

لأن الدولة منعت عنا المساعدة، وقد آوتنا إلى هنا لتتخلص منا ومن جرائمنا. فان لم يكن هناك نظاما حازما يدير شؤون الناس؛ سوف تحدث فوضى، الأخ سيأكل لحم أخيه...

نحن نعمل كجماعة وليس كأفراد.... الذي أعطاك الورقة عرفك على العصابة بانك غريب، وأراد أن يشهرك بين المجرمين.. والذي أظلك؛ ود أن ينقلك لجهة التنفيذ، لجهة الجز والقتل والسلب.. وصاحب النظارات السوداء والشاب الذي معه، هما متخصصان

فـي التخـدير والقتـل.. وهنـا صـدمتك شخصـية صـاحب التكسـي، والحقيقـة هـو ضـابط أمـن المدينـة.... صـدقني لـن تسـتطيع أن تخـرج مـن هنـا دون هـذا الشـرط، ربمـا يقتلونـك ويسـلبون كـل مـا فـي جيبـك، ومـن ثـم يرمـون جثتـك علـى المزابـل تنهشـك الكـلاب، حيـث لا قـانون يمنعهم من ذلك.

- مـاذا تقـول! أنـه منفـى لصـوص ومجـرمين؟ وهـل أأنـت منهم؟
- أنـا كبـرت علـى القتـل والأجـرام، أصـبحت بـلا قـوة، لـن أسـتطيع أن أعـين نفسـي، لـذا انتخبـت مـن قـبلهم رئيسـا للبلـدة أديـر شـؤونها، فأنـا الـرئيس الفعلـي للبلـدة والقـادر علـى إدارة أمنهـا، ولـن ينفـذ عمـل فيهـا إلا بعلمـي، هـؤلاء لو سرقوك لأودعوا نصف المبلغ في خزينتي.
- طيـب يـا عـم أنـا موافـق، والمبلـغ الـذي معـي هـو الفـي يوان ومائة وسبعون ماو. هذا كل ما أملك.
- إذا حصـتنا هـي الـف يـوان وخمسـة وثمـانون مـاو تـدفعها الآن لـي، وصـاحب التكسـي لازال واقـف ينتظـر أمري، كي ينقلك خارج البلدة.

لأنقـذ نفسـي مـن الكماشـة التـي طـوقتني، اضـطررت أن أدفـع لهـذا الرجـل نصـف مـا أملـك، حينهـا أسـتدعى صـاحب التكسـي أو بـائع العصـير الـذي سـلمني ورقـة الأربعـة مـاوات، أو ضـابط الامـن كمـا أدعـى الـرئيس، طلبـا منـه أن يخرجنـي خـارج دائـرة الشك.

ثم التفت إلي قائلا لي بالحرف الواحد:...

- عليك أن تتعلم الدرس. غير مسموح لك مداولة ما جرى بيننا حفاظا على سلامتك، أو تسأله عن أي شيء صادفك في البلدة....تفضل مع السلامة.

هكذا سلبني نصف ما أملك وذهب في طريقه دون أن يبذل أي جهد.

ركبت مع ضابط الأمن أو الكاشير (بائع العصير) الذي قاد التكسي، ماضيا بي في متاهة من الطرق الوعرة، مارا بأمكنة مخيفة مليئة بالأحراش والالتواءات، وفجأة توقف قرب واد سحيق، شاهرا مسدسا بوجهي، قائلا لي:...

- أخرج ما تبقى في جيبك، ذاك هو من نصيبي، وإلا أأخذه منك بالقوة.
- ولكن الرئيس أتفق معي على النصف فقط!
- عن أي رئيس تتكلم؟ لا يوجد رئيس في بلد الوحوش، كل يعمل لمصلحته، ولكن دون تجني واعتداء فيما بيننا، هذا الذي أدعى بأنه الرئيس هو أكبر مخادع وأستاذا كبيرا في النصب والاحتيال، تمكن في لحظة ودون جهد من أن يسلبك نصف ما تملك.... أنت الذي اختصرت المسافة بينك وبينه وعرفت نفسك عليه. نحن نتبع الفرص، أو نصنع الفرص بالجرم والشعوذة والتخطيط.

فعلا أنه قال لا يوجد شريف في هذه المدينة، كنت أحسب الكاشير شريفا، طيبا، غير أنه خيب ظني، توقعت صاحب النظارات شريفا بان لي مجرما، حسبت العجوز شريفا فظهر مخادعا، ثعلبا، ماكرا، رغم اعترافه لي بذلك. ولكن ما العمل؟

- وكيف أضمن نفسي من أن لا تغدر بي وتسلمني لآخر؟
- أنت معي في سيارتي، بيدي فرصة قتلك أو إنقاذ حياتك، والدليل أنظر في الورقة التي أعطيتك إياها، أنها مكتوب فيها أسمي، فأي شخص يفلح في سلبك فأنه سيضمن حقي بنصف ما يسلبك.

هكذا بين لي نظام العمل بين المجرمين أخذا مني ما تبقى دون رحمة، ثم أوصلني خارج حدود المدينة. حينها قلت له؛ بالله سؤال أخير شغل بالي:....

- يا ترى؛ ذلك الذي في القوارير كان عصيرا أم مخدرا؟
- أنه عصير طازج وليس كما أخبرك الرئيس، ولكن الكافتيريا ليس مكانا للجريمة. الآن أذهب لتلك القرية أنت في أمان.

حينها رجعت أمشي في طريق العودة صفر اليدين، منهكا، مفلسا، جائعا، عطشا، حزينا، وبقي طعم ذلك العصير يدور في فلك لساني.

سمط الجنون

لم يكن جميل سوى أنسانا بسيطا أذكته المناصب والمباهج، فبان في رواق الصمت كشمعة مبهجة، أزاح حلكة الظلمة عن طريقه ونواياه المتعلقة ببارقة العمر، فأطرق خلفها تأملاته، ثم تتبع حوافر أحلامه بيقين الواثق، فأضحى بين ليلة وضحاها سيد قومه.

فطنته سبقت توقعاته، لم يعتمد على هاجس الظن كزملائه، طفح كيل إذكائه، فأغرق أقرانه ومن سبقه ممن كانوا قد شاركوه ماراثون المناصب والتأهيل والنجاح. ثابر في دراسته فثبر المستحيلات بحدة ذكائه، نال أرفع الدرجات والأوسمة شأناً ومكانة، بلغ القمة بيسر، تلذذ شكولاتة المفاهيم، حتى تلونت كلماته بلون الثقة والحكمة وبمحبة المسؤولين، فأمتلئ صحنه بجدية الأعمال وعبقريه..

واصل تأملاته بعيدا عن منافسيه، وفي ظل أعجاب المنافسين والمحيطين به، لقد كرس ثورته بالأعجاز المبتكر في شؤون المفاضلة والمقارنة والإسهاب والتحدي. كان قنوعا، صابرا، ملهما حد التخمة في تكوير العقد وتسليك الطرق، تمكن من تمليس الظرف المعقد لصالحه، لقد طغى سحره على تمثيله الأدوار المناطة به ببراعة، لم يتبع الظن في اختياراته إلا فيما خص قلبه المتعطش لعطفة دافئة تشفي غليله.

كان مدركا لقدراته، لذا تعامل مع محيطه بشكل عِلمي وعَملي وواقعي بما خصه وخص مجال العمل من شؤون شخصية وإدارية عامة. كان شديد الدقة والمراس، كثير الهلوسة، حذق الإحساس، سماته أعطته الدافعية الى الاعتماد على ركائز قوية سندته، شدت وثاقه لحقل التجديد والابداع المستمر.

ولأنه كان ناجحا في عمله؛ أكيد كانت له معجبات كثر، حتى أنه لم يجهد ذاته في إيجاد شريكة حياته، حيث تمكن من أن يبني علاقة محبة صادقة مع أحدى موظفاته الحسناء، تلك التي تأملته كثيرا في خيلائها، فبعثرت بفرص سعادتها أمام خطوات قدميه، فتعثر بها، فأنتبه على أريج فتنتها وسحر بريقها، فتفتحت نوافذ أحلامها، فتلقفته بشباك حسنها في أول طلة له أمام نوافذ أشواقها الرهيفة.

حينها أستفاق على جمرة الآهات التي نشبت في قلبه، أستكان على قبس من الود والنجوى، تجربة لم تعتريه من قبل، لم يجرب مرارة عذاباتها، تختلف كليا عما تحجر عليه ذهنه من تطلعات غاربة في مجال العمل الوظيفي والمناصب. تجربة فصلت بين ذاته وعمله، نفضت غبرة الروتين عن فكره، أبهرته لآلئ التوباز وشفق العقيق المتناثرة حول فتنة حبيبته.

هذه كانت أول تجربة له، أول مرة تلسعه نحلة الحب، حينها شعر بألم غزها، وبحلاوة شهد عسلها.. ذلك الألم الذي لا توصف همساته وصمته وسحر سكونه. كان قد غص في

هيامــه، تــذوق لســعة الأشــواق، حتــى احترقــت زغــب مشــاعره بنار الصبابة.

لــم يعــد يحتمــل ذاك العصــف الأهــوج المنبثــق مــن جوفــه ومــن مفــاتن ســحرها، ذلــك الــذي عبــث بمقــدرات حياتــه، لــذا استســلم صــاغرا لهواهــا، رفــع الرايــة البيضــاء أمــام ســيل موجهــا الهــادر، لــم يحتمــل قســوة لاحظــة هنــد، ولا جمــرة عقيــق شــفتيها، ولا قنديل سمير وجنتيها. مثلما أحتار في بريق أنفها البلق، أحتار فــي شــعلة قــوام القــد البــاهر. خضــع لاســتمالة مشــاعره، لمــا أضفتْ على قلبه من صِرر وتأتأة شغاف وألم الجوى.

تلــك اللهبــة مــن الأشــواق دفعتــه إلــى أن ينظــر بجديــة لخارطــة مســتقبله الجديــدة، أن يفكــر بإمعــان وبثقــة تجــاه مــن فطنتــه علــى ذوائــب الحــب، أن يغيــر مــن ســلوكه ومــن مراكــب أبحــاره تجــاه ذلــك الصــرح. أن يصــارح ســلوة هــواه ومبتغــاه بحقيقــة مشــاعره المتدفقــة، لابــد مــن كســر حــاجز الصــمت الزجــاجي أمــام عبثيــة الــود العــارم واصــراره الــذي يجتــاح كيانــه.. عســى أن يجــرف مخلفــات النســيان وفضــلات الــذات وأهــوال الفكــر وأحوالــه المركونــة فــي الطــرق. عســى أن تســتقر بــه الــذات الملهوفــة والانــا المســتبدة علــى قامــة صــبره، كــان قــد طــوِقَ بســيل مــن الــود المهول، فرفع صواري أعلام رغبته فوق كل المراتب.

فــي المقابــل النــار التــي كانــت تبــدو هادئــة فــي أركانهــا لــم تكــن كــذلك فــي ذاتهــا؛ غــدتْ جمــرة متقــدة، أخفتهــا فــي ديجــور ســرها، لتوقــد بهــا صــبابتها، ذرت رمــاد الصــمت فــي العيــون، فبانــت بــين

المـلأ تفاحـة ناضـجة. اشـتط دخـان سـحرها مـن أبخـرة المعـارف، أنتشـى فـي أروقـة الحـب بشـيء مـن رعـاف الشـوق، ليزيـدها ألقـا وبداعة واهتماما.

كانــت النــار الزرقــة لاســعة، مجنونــة، أحرقــت جوارحهــا، ضــورت فتنتهــا فــي أعماقهــا، ألهبــت فكرهــا وشــغلت قلبهــا، جعلتهـا تلـوذ بحيرتهـا فـي بحـر مـن الصـمت والسـكون، وذلـك بعـد أن جلـدتها الوحـدة؛ ممـا عشعشـت الغيـرة الجامحـة فـي أعماقهـا، فبانت كزهرة الصبح، جذابة أمام الفراشات المارقة..

بتقربـه منهـا؛ كأنـه كشـط طبقـة الرمـاد عـن ذلـك الصـمت القـابع فــي وجــه رجائهــا، كانــه تحــرش بهــا تحــرش الــريح بــالزهرة، فبانـت تـرقص فـي ذاتهـا، تميـل فـي مشـاعرها، حتـى أدرك هَبـة النار المشاطة من جمر أصدافها.

حينهـا التقـت حـرارة الأشـواق علـى منصـة الـود. استسـلم لهـا، فاستسلمت له- فشظ النور من فتنتها على أرجاء فكره وقلبه.

.... تلـك المفارقـة التـي حظـت بهـا صـدفة اللقـاء، كانـت كـإبرة تخـدير أنسـته همومـه ومشـاكله، جعلتـه يصـب جـل تفكيـره فـي حـوض مسـتقبله، وفـي بنـاء سـقف محبـة يظـل بـه حبيبتـه. غـدت فـرص اللقـاء فسـحة، دائمـة، تجـدد بعضـها، تـبهج حياتـه وحياتهـا، ترفـده بالجديـد مـن الآمـال والسـعادة.. تلـك الفـرص آلـت إلـى زواج ميمـون، مقـرون بالرغبـة الجامحـة مـن قبـل الطـرفين، ومحفوف بفرح الأهل والأصدقاء.

لم تكن زوجته الحليمة امرأة عادية قط، إضافة لجمالها وسحرها الأخاذ، فهي تمتلك مواصفات المرأة المثالية، أرتقى بها أبوها الوزير إلى رص فكرها بكم وافر من القدرة والإمكانية والمثابرة، رصنت ثقافتها بمفاهيم العلم وتسابيح الدراية منذ نعومة أظفارها، حصنت ذاتها بالدين والعلوم، رصت معلوماتها، أضفت على شخصيتها مسحة الكمال والأناقة، كونها مهندسة ناجحة في مجال عملها.... لذا تجد زوجها غير مبال بما تحيط به من معجبات، ومن مغريات الدنيا، حتى أنه لم يكن من ذوات السهر والابتعاد عن محور البيت خلال مراحل حياته....

خلال فترة حياته الماضية؛ كان أشبه بالنبتة المجنونة من نباتات المتسلقات كالسرخس واللبلاب، تسلق منازل المناصب عنوة، مخلفا ورائه رغبات الزملاء، باتقاد نشاطه وإذكائه وهدوئه ورزانته في كل ما سعى له بلغ العُلا. زاحم الظروف فغلبها، واجه العواصف فستكان في برجه دون أن تزحزحه قيد شعره، أرهفه شغف العمل ومغرياته؛ حتى دق مسامير صبره في صلب الواحها، تلك الرغبة التي كانت تطارده من موقع لآخر فلح في رسمها، كان قد تقدم في مجالاتها دون أن ينحني ظهره أمام صعابها.

كان يمشي واثق الخطوة، متمالك النفس، يعرف إمكاناته، حل عقد المسائل اللفيفة بيسر، بسطها، جعلها كما لم تكن من ذوات العقد. كآلة الحاسبة، جعل الحلول رهينة بين يديه، وضب متطلباته، رتب جداولها ليسهل عليه المنال.

هكذا تدرج في المناصب حتى أدرك قمة الهرم التي تأملها، وضف مديرا عاما في شركة بترولية مرموقة، أصبح مسؤولا عن قطاع غني ومهم، يأتمر تحت ظله كوكبة من المهندسين والعمال المتميزين بثقافاتهم وأعمارهم المختلفة رغم صغر سنه.

كان خفيف الظل، حسن الوجه، سريع البداهة والنكتة، البسمة ترافق ثغره أينما يحل. لم يخطر في باله يوما أن شكى حزنا أو عناء أو عانى مأساة في حياته، لأنها بسهولة تلك العقد تهرب من أمامه، لا تلامس شفافية طباعه. كأن الله قد جنبه عذابات الدنيا، وأن كان قد مر بذلك يوما ما، فأنه لم يدع للحزن صبغة تطرأ على وجهه..

في احتفال رأس السنة الميلادية؛ أقام احتفالية بهيجة بالمناسبة، والتي تزامنت مع مناسبة تسنمه منصب إدارة الشركة للعام التالي وبنجاح باهر....

الاحتفال كان كرنفالا شارك به جميع منتسبي الشركة، وزع فيها الهداية والجوائز التقديرية، إضافة إلى مُنح الترقية التي طالت المتميزين من المنتسبين، والذين قدموا جهودا استثنائية لخدمة الشركة.

كان الاحتفال ممكن أن يكون روتينيا، عاديا، لولا براعة السيد جميل الذي سحر الجميع في طلته على المسرح، ليبرز بعض ما تميز به من مواهب براقة، فهو جميل في سلوكه، ووسيم في شكله كما هو أسمه.

بشخصه وشخصيته كان من أهم فقرات الاحتفال، على الرغم من تنوع فقراته، في طلته لمس قلوب المتميزين، وذلك بما نالهم من نصيب وحظ وافر عن بقية زملائهم، مثلما لمس حقد وبغض حساده البائسين..

حين وقف على المسرح، كانت الوجوه تتأمله أن يلقي كلمة عادية بالمناسبة، إلا أنه أحس بأن البعض من هم أقدم منه، وأكثر خبرة في مجال العمل منه، لا يعجبهم تسنمه رفعة المنصب. مع أنه لم يفكر في خصامهم كـ ندٍ، ولم يدع مجالا للمنافسة المغرضة، بل ود أن يكسر مجاديف أفكارهم السامة بلطافته أمام الملأ، وبطريقة ذكية تختزل قدراتهم والزمن معا.

أسلوب جدير شرع به، كسب به ود الجميع، وأول ما قاله في كلمته القصيرة جدا:...

- هذه الدنيا ستزول بما فيها من مناصب. والحمد لله على أننا عشنا لهذه اللحظة ورأينا أول يوم من السنة الجديدة. لذا علينا تقبل الواقع والتعامل معه على أنه صديق لنا، عسى أن يساعدنا الحظ على تجاوز محن الغد بيسر، والذي أرى نور صبحه قائم في وجوهكم، رغم أن البعض منا لا يلتمس ذلك النور. وهذا الصديق يحتاج منا الدعم؛ كي يرافقنا كظلنا لإنارة مستقبلنا، كي يتحول البؤس المتقوقع في نفوس البعض لسعادة دائمة ترفد أفكارهم وحياتهم بالجديد..

هـذا الصـديق المسـالم، هديتـه هـي أن نتصـف معـا بالفرفشـة، أن نلهـو بمشـاعر جياشـة، أن نـزيح هالـة الحـزن والكآبـة عـن محـاجر العيـون الضـالة.. تلـك البهجـة ستسـحر القلـوب، وتـرمم السـعادة... إذا علينـا أن نضـحك مـن قلوبنـا، أن نصـون تلـك العلاقـة الأنيـة التـي جمعتنـا بـود، أن نمسـح صـور الكآبـة المعلقـة علـى جـدران الفكـر إلـى الأبـد.. دعونـا نضـحك مـن قلوبنـا بصدق، لا مجال للمجاملة في هذه اللحظة.

ففـي اللحظـة الواحـدة؛ توجـد كـم هائـل مـن البهجـة وكـم هائـل مـن الحـزن والبـؤس. دعونـا نختـار البهجـة والفـرح بشـوق لنطفـئ شـواظ النـار العابثـة فـي قلـوب مـن لا يشـعر بهـا.. ففـي اللحظـة الواحـدة؛ توجـد كـم هائـل مـن الألـوان المنبثقـة، تتـنفس بوجودنـا، تتنفسـح فـي ربوعنـا وأمـام أعيننـا... دعونـا نختـار منهـا اللـون المناسـب الشـفاف البهيج لتلوين ظرفنا، حتى تروق لنا اللحظات القادمة..

نحـن كمجموعـة أشـبه بصـيادي سـمك، نمخـر عبـاب البحـر، نتأمـل الـرزق، لـيس لنـا قائـد سـوى المصـلحة المشـتركة، تـرى كـم سـيكون نصـيب الـرئيس مـن نصـيب العامـل إذا مـا عصـفت بنـا الأمـواج وغـرق المركـب بنا؟؟؟..

أعتقـد النصـيب سـيتوزع علـى الجميـع بالتسـاوي، مـن هـذا المنطـق أقـول لكـم دعونـا نمسـح الضـبابية التـي تـوهم الـبعض، كـي نـرى الحيـاة بشـكل أوضـح، وأفضـل طريقـة لمسـح تلـك الغمامـة؛ هـي أن نصـفي النفـوس وأن نضـحك

معـــا بصـــدق، لأن الضـــحك هـــو عـــلاج لكـــل داء عضال.....
أملئـوا لحظـات الحيـاة بِـالفرحَ، اكسـوها بِالأمـل، اطربوهـا بِالضـحك، جرّدوهـا مـن هالـة الحـزن؛ فَـلا شـيء يسـتحق الاهتمام بعد الصحة والعافية...
للعلـم الشـخص الواثـق مـن نفسـه؛ سـتكون ضـحكته تميـزه، أود سـماع تلـك الضـحكة، لأكـون فخـورا بقيـادة الـواثقين مـن أنفسـهم.. كونـوا واثقين مـن قـدراتكم، كونـوا رؤسـاء لأفكـاركم المفيـدة، حتمـا سـتنجحون فـي الحيـاة وفـي كـل المجـالات، سـتنجحون حـين تعـززون ذواتكـم بالثقة، حينها أطلقوا لأفكاركم العنان لتمرح.

بعـد هـذا الكلمـة المـوجزة، وبعـد صـمت رهيـب لثـوانيَّ قليلـة، فاجـأ الجميـع بأطلاقـه ضـحكة قويـة صـدرت عنـه - هههههههه. هـزت القاعـة وزرعـت البسـمة علـى شـفاه الجميـع إلا مـا نـدر... أطلقهـا عبـر الميكرفـون دون أن يتوقعوهـا.. بضـحكته الغيـر متوقعـة كأنـه نبـه الجميـع علـى أسـلوبه، لـذا كانـت ردة الفعـل قويـة مـن قبـل الأغلبيـة تـوازي عصـف الحـدث. ضـحك الجميـع ضـحكة عفويـة طبيعيـة مـن بـاطن القلـب .هههههههههه... سـرته الحالـة، لـذا دعـاهم أن يطلقـوا الضـحكة مـرة أخـرى كمـا فعلهـا وبشكل اقوى...

في بداية الأمر لم يستجب لطلبه سوى القلة القليلة.

أعاد طلبه بأطلاق الضحكة العفوية حيث قال:....

- لا لا... أريدها قوية جدا بحيث تخرج من حشاشة القلب، حتى يلفظ القلب سمومه، لنشترك في الضحك جميعا، وأول سيدة تطلق ضحكتها بقوة، لها هدية ثمينة، لها قبلة من خدي، أو أدعها تختار مكان القبلة... هههههههه،

ضحكوا بشكل عفوي دب المرح في الوجوه، فيما سعدنَّ بعض النسوة بكلامه اللطيف.

- هيا استعدوا : واحد – اثنان – ثلاثة ... هههههه.

البعض فقط اطلقها، وآخرون أصابهم الخجل أو تعمدوا السكوت، لكن العدد تضاعف عن سابقه --- لذا ود أن تعاد الكرة بضحكة أقوى.

قال معقبا على الحدث:...

- هناك من أصابه الخجل وسكت، ولكن أود أن أنبهكم بأن الضحك ليس له عمر ولا واقع ولا شكل، أود من الكل أن يشترك ويمرح به... لنُعيد الكرة، لا نبغي مريضا بيننا، فالضحك رياضة للقلب. أود أن نرتقي بعلاقتنا سلم الرقي، لنعيش بقلب واحد... الضحك يخفف من ضغوطات الحيوات ويخفض من ضغط الدم والكولسترول ويعزز مناعة الجسم، يسكن الألم، يزيل القلق، يريح الذات، يساعد على التئام الجرح، يطول العمر. كما يشجع على التواصل مع الآخرين

ويلهم الإبداع، وأهم من كل ذلك يرسخ المحبة بيننا، دعونا نحب بعضنا.....دعونا نضحك.. هيا استعدوا للمرة الأخيرة ....واحد .. أثنان .. ثلاثة.....

هههههههههههه شارك فيها الجميع، كانت تلك الفرفشة عفوية راقت استحسان الجميع .. حينها أختار امرأة كبيرة السن أن تقبل خده قائلا لها:...

- أنت يا أمي لقد لمحتك كنت البادئة بالضحك تعالي وخذي هديتك من خدي..هههههههههههه .

رغم التي اختارها لم تضحك، أو لم تكن البادئة، ولكن كانت نباهة منه ليشد أذهان وعيون الجميع إليه.

عندما قبلته السيدة قال لها:...

- بالله خبريهم كيف وجدتي القبلة ؟
- ألذ قبلة مرت عليَّ. هههههههههههه... ضحك الجميع وخاصة النسوة.

ثم قال:...

- أن هناك مقولة لو أعرف من قالها لأحرقت جلده ضربا.

فسألوه:... ما هي ؟.....قال:...

- يقولون الحب أعمى ...هههههههههههه.....

الكل ضحك هههههههه .

- أي غبي أطلقها؟ الحب عنده خمسين عين، يبحث عن الصغيرة قبل الكبيرة، لا يترك شعرة إلا ويدرك جذورها. الحب له مخارج لن يشعر بها إلا من تعلق بكفافه، الحب ليس له شكل ولا لون، أنه هلامي يتكور مع الرغبات، فهو كالضباب والهضاب في حياة الشخص، لا تستطيع الإمساك به أو تجاوزه. الحب كائن حي، له لون وصفاة وحيوية وبراعة وطرافة وخفة دم.. أود أن أسالكم بالله... هل الحب أعمى؟
- لا لالالالا.
- أنا أتحدى كل النساء أن لم تكن لهن رغبة دالة في شخصي الآن. لكني أنا حزين جدا!
- لماذا؟ قالت إحداهن..
- لأني لن استطيع الزواج منكنَّ، سأشبع ضربا من قبل زوجتي، الغيرة مرة، والذي لا يغار حمار.
- هههههههههههه. ضحكوا الجميع..

أحدى العجائز سألت بعفوية لتزيد الأجواء بهجة. قالت:..

- تزوجني يا استاذ؟ هههههههههههه.
- أن كيدكن لعظيم. هههههههه.

كان فصل ضحك قل نظيره مع مدير شاب، عرف من أين يأكل الكتف، بحيث بتلك الملاطفة تمكن من قص أجنحة أعدائه، كما بأسلوبه السلس؛ أعطى درسا مجانا للأزواج

ثقيلي الدم، ليعرفوا كيف يتعاملوا مع الجنس اللطيف بعفوية وابتسامة.

****

من طبع الإنسان؛ لا يستقر على رزق، ومن طباعه؛ حب المغامرات والتجارب وتغيير سلوك حياته، لكسر حاجز الروتين المصاحب للظرف والسكينة.

خلال مسيرته؛ تعرف على شلة من الأصدقاء وجد فيهم صبغة جديدة للحياة، شعر من خلالهم بتنفس جديد لمجالات الحياة كسرا للروتين المتقوقع فيه، مجالات أكثر بهجة وحيوية مما هو عليه، لقد وجد فيهم تغييرا لامعا، يبعده عن شكل الجمود الذي قمص واقعه بعد زواجه.

كل فرد من أفراد الشلة له طابع مغاير لطابعه، مختلفا كليا عن ما يسلكه ويتأمله ويترجاه، وعن ما تربى عليه من قيم ومبادئ. تلك الاختلافات هي طبيعية، ولدت بفعل الظرف والبيئة المحيطة بهم، فالله لم يخلقنا متشابهون.

تلك الشلة أضفت على حياته صبغة جديدة من الألوان الحياة الرنانة، صنعت له أجواء مرح في خضم الروتين والعقد، جردته من واقع ملل البيت وجدلية الوظيفة، انتشلته من صبغة الإهمال والكسل الرائب جراء الجهد الفكري المبذول.. لذا وجد نفسه بحاجة إلى تغيير نمط الحياة، إلى مسايرة جميع الأطياف، لتتعمق أفكاره بمثيرات الحياة المتنوعة، ليكن أكثر

حصانة أمام مغريات الحياة، وليتعلم ويتسلق خصوصياتها، عسى أن تزيده خبرة ومعرفة في مجال العمل والتعامل مع الجميع قاطبة.

فتن بالتغيير الجديد، سر بتلك السعادة التي أضفت عليه نشاطا روحيا ونفسيا، أصبح صاحب دعابة ونكتة دائمة، أنعكس على سلوكه وتصرفاته بشكل إيجابي. حيث ما أن تعمقت الصحبة الجديدة؛ حتى بدأت تدغدغ أطراف سره، ولفرط ثقته بنفسه؛ كان واثق من تجاوز عقد الحياة متى يشاء...

سهراته وسفراته مع تلك الشلة زادت عن حدها، مع تكرارها تولع شغفا بها، زادته ألقا وهوسا من ناحية النشاط على مستوى العمل والعلاقة الزوجية، رفدت سلوكه بحقنة من كلوروفيل الشوق ومن أوكسجين الرغبة الدائمة، ليستنبط مكنوناتها من تلك النوابع الجديدة في حياته.. مع إفرازات تلك الشلة التي تعود على سلوكياتها وتطبع بطبائعها، حافظ على نجوميته وهيَّ تتلألأ في سماء الشركة.....

ولكن...

أعين الأعداء لا تنام، تسرق الومضة من خيوط الشمس لتنفذ إلى الهدف بسهامها، لتتشبث بكل ما للحقد من سنن، كي تدرك مآربها. تربصت له، نصبت شباكها في طرقه، عدت فرصها لصيده. فلن يهدأ لها بال حتى يسقط في المحال كي تصل غايتها.

فالأنسان ضعيف بطبعه، خطّاء، لذا تجده يهفوا من حين لآخر، وأن كان يعيش زهوه ونشوه. أحيانا يدفعه فضوله لخوض تجارب تسيء لذاته، تودي به لمتاهة، فتكون حلقة وصله ضعيفة بين الأنا والغاية، بين ممارسة التجربة وحب الاستطلاع أو ما شابه ذلك. فضول سلط عليه كسلطان الكرى، جره من واقعه، ليتكيف، يتلذذ بتلك اللحظات الخاطفة، العابرة لموانع فكره... عندها شعر بذاته قد تراجعت إلى موقعها الأول، بعد أن تشبع من ذلك الفضول، ليكتشف قرف قيح النتن المنبعث منها...

وجميل كان قد سمع بتلك العلاقات الجنسية عبر مواقع النت، فحاله حال بقية الشباب، ود أن يستطلع ويتعرف على شكل هذه النماذج التي تلسن بها أفراد شلته وما نوعها؟ ما خواصها؟ وماهي حجم المتعة التي سينالها؟.. أنها مجرد إهواء وتسلية لا أكثر.

في تجربته حاول التعرف على خفايا النت، بحيث يكون ملما بكل صغيرة وكبيرة من ما تحتويه من أسرار، كي لا يُحرج من قبل زملائه بمعلومة لا يعرف أسرارها وخفاياها، فأوعز تلك الممارسات خارج نطاق الموبقات، كونها علاقات غير مباشرة عبر الشاشة، دون اتصال بدني بين الجنسين.

وكان قد أرتبط بعلاقات وتشعبات عميقة وكثيرة في برامج التواصل الاجتماعي، كالفيس بوك والتويتر والأسناب شات وو.....الخ، مع معظم موظفي الشركة. إضافة لعلاقات أخرى

خارجيـة تضـم معارفـه ورؤسـاءه وعـدد آخـر خـارج حـدود العمـل من معارف وأقرباء....

أحيانـــا الأنســـان لا يســـعى خلـــف تلـــك العلاقـــات الســـرية المشـبوهة، أنمـا تفـرض عليـه مـن خـلال الاعلانـات التجاريـة، أو تبـرز أمامـه صـدفة، فتقـدم نفسـها وتحتـك بكـل متميـز، بـل أحيانـا تكـون مدسوسـة مـن قبـل شـلة الأعـداء الحـانقين عليـه، لغـرض التجسس والإشهار والابتزاز بشكل مدروس.

وفـي أحـدى المـرات رنَّ هـاتف النـت علـى حاسـوبه الشخصـي فـي برنـامج طلبـات صـداقة، وقـد كانـت اسـتجابته طبيعيـة لفـتح الحـوار، ربمـا يكـون المتصـل قـد أتصـل لأمـر هـام أو يكـون مـن ضـمن المعـارف.. الـخ.. لـم يتـوانى فـي فـتح صـفحة الفيـديو حتـى سـقطت عينيـه علـى وجـه حسـن، جميـل، لـم يتعـرف عليهـا مسـبقا، تـنعم برشـاقة الجسـد، بزغـت بوجـه كوجـه الشـمس، كانـت بـدفئها وألقهـا، جردتـه مـن واقعـه المـثلج. جسـد يمتلـك فتنـة الحريـر النـاعم الملمـس، السـحر يتسـلق طبقـات المحاسـن فـي معانيهـا، تمتلـك هيافـة فـي أنوثتهـا، وطيبـا فـي كلماتهـا، ورقـة فـي حـديثها وطراوة في طبعها.

شـابة بعمـر الزهـور، محزمـة بأسـلحة الأنوثـة الفتاكـة، بزغـت لـه كحوريـة خرجـت مـن جـوف الأنترنـت كقمـر تهـادت وسـط الغمـام، حركـت زغـب مشـاعره.. حوريـة شـقراء، جذابـة، ناعمـة المعـالم، واسـعة العينـين، كرزيـة الشـفاه، بارقـة الصـدر، كقطـة شبقة.

أخذه الفضول في تتبع غوايتها، وإذ بها ترسل له قبلة هوائية ملئها عذوبة وأنوثة، أراقت نبضه. ما أن أنبرت حتى خلعت حاضنة الثدي، لتبرز جزء من سحر جمالها المخفي، أغرته بطراوته وتكور ثديها، بانت صدفية اللون، ورديه الحُلمة، كلآلئ تبرق بلونها الزئبقي. ثم عرت له الساقين الملتويين كأفعى كشفت له ثأدة الفخذين مكتنزين بثورة الشبق، لغر الجسد وفتنته تمكنت من الاستحواذ على مجانته، أن تنفذ بهدوء لفكره، أن تنقض على عفويته، أن تشيع فوضى عارمة في قلبه. هكذا أوثقته بحسن معالمها، أوقعته بشباك مباهجها..

من جانبه ود أن يكسر تلك الحواجز التي تمنعه من الوصول إليها. ليغور في أعماق تلك المباهج، علّه يكتشف أسرار تلك القوقعة المنزوية في قيعان البحر، أن يغرف نظرة من لؤلؤتها. ربما يصل معها لعلاقة وطيدة مستقبلية، يؤم بجنانها وتام بربيعه، لذا شجعته، طلب منها المزيد. ودها أن تخلع بكينها (لباسها الداخلي)، ليشعر بحرارة الشمس!! لكنها اشترطت عليه أن يستجيب لغرائزها هو أيضا، أن يريها عمود النور، فهي أيضا محشوة بالرغبة والشغف مثله. قالت له:...

- أنت وسيم جدا، لاطفني مثلما ألاطفك، ألا أستحق منك الإطراء؟
- مثلما ترغبين، حقا أنت جميلة أغريتني بحسنك.
- هيا؛ دعنا نخلع سوية.
- قد لا أعجبك؟

- دعني أشعر برعدة قضيبك أمام مباهجي، هيا نخلع معا لأريك فرجي وشرجي.
- هيا..

تسابقا في الخلاعة، ما أن نض لباسه وأظهر قضيبه الذي بات يرتعد أمام أنوثتها؛ حتى تعمق ذلك الفضول من طرفه، فغاص في وحل تلك الملاطفة دون أن يدرك. ففي اللحظة التي غشي بتلك المفاتن، كشفت له طراوة زهرتها، فأستقام قضيبه، ما انفكت؛ انقلبت على البساط كثعبان لتبرز له التضاريس جسدها، طلبت منه تقليدها...

هكذا وقع في الشرك؛ حتى زاغ جميل بإستمناءه على وقع إغرائها... لم تدم العملية سوى ثوان معدودة، ومن ثم قطع الاتصال الفديوي لتسأله....

- ما رأيك هل نستمر؟

لم يستجب لها، شعر بأنه قد غاص في الوحل، أحس بأنه كان تافها في تلك اللحظات، جرفته تيارات الفضول إلى مستنقع الرذيلة، جردته تلك الآفة من قيم الأخلاق ومبادئ الدين التي أتصف بها، توسخت ورقته البيضاء بسواد عمله. أستفاق على عجل ليستدرك كرامته التي تلطخت بوحل تلك الغانية، استطاعت أن تعبث بمشاعره، أن تلوك وسخها بقيمه، حتى نسي كرامته ومكانته أمام تلك الثعبان، أنساه الشيطان حكمته وأنسته هي بشيطنتها قدره.. حين بحث عن أسمها المزور في قائمة الأسماء، لم يجد لها حضورا ليحضرها..

حينها جاءته رسالة على موقعه الخاص، تفيده بأنه قد أصبح صديقا لنفسه، لقد هكر موقعه وسرقت كل ملفاته ومعلوماته وأسماء أصدقائه. كما أرفقت مع الرسالة مقطع الفيديو المسجل لتلك الواقعة. تفيده الرسالة بأنه وقع في الفخ، وهم على استعداد للتفاهم معه مقابل مبلغ كبير من المال يدفعه لهم مقابل الفضيحة. أنها عملية ابتزاز واضحة...

لم يرد على تلك الرسالة، ألغى حسابه الرسمي من عالم الفيسبوك ــ لكنه لم يستطع أن يلغي حسابه الآخر الذي بات بحوزتها وحساب معارفه معها.. تلك العملية أدخلته في صراع نفسي شديد، تأزم نفسيا، انكدرت طاقته أصبح أشبه بالنبتة الذابلة لا رونق فيها، صارت جذوره تبحث عن شربة ماء تبلل ثغره، صار يبحث في أعماق الفكر عن منفذ ليهرب منه لواقعه الحقيقي، أفترسه الندم، أنهار سقف طموحاته، همد نشاطه. أضحى لا يجرء على التحدي قط....أين المفر، أنه مهدد بالفضيحة أمام كل معارفه ووزارته، الموج أعتلى أشرعته، الكدر صعد وتيره، فباء كمن يسعى لنجاته بموته.

في اليوم التالي لم يذهب للعمل، لكن صوره سبقته، فلم يتمكن من أن ينكر الحالة إطلاقا. محبيه لازموا الصمت، فيما أعدائه وشوا بالفضيحة وطبلوا لها بين الملأ، باتوا يطالبونه بالاستقالة...

بالفعل تم رفع تقرير أخلاقي لمجلس الوزارة، ومن ثم تم إحالته إلى التقاعد، مع وضع تحته أسمه خط أحمر ضمن الملاحظات، سيمضي معه لنهاية العمر.

أما زوجته التي كانت تنظر له بعين الاعتبار، اشمأزت منه، شعرت بأنه ليس جديرا بها، لذا فترت العلاقة، ثم بترتها.. فتحول ذلك الطائر البهيج إلى عنصر غامض، معقد، معزول، مبجل بالحزن والكآبة.

هسيس الليل

أرقٌ بليغ أسْهد الذهن

أندى خيالا في الحدق

جعلني أتوه في بواطن الظن

يشيننني شوق ويدينني رهق

لست على ما أنا منذ زمنٍ

منذ أن رق الود في كأس الشبقِ

منذ أن دنى الصمت لخاطري

زُقَّ الفؤاد ببحر القلق

×××××

كثيرا ما شكتْ ذاتي الهائمة وأرقتْ بطيف الحبيب ونار الجوى، لتعين قدري على بلادة صبر مر شاقه الهوى. كنت قد تمسكت بخط العند؛ حتى طفق الشوق يلهث من جور النوى، يتبع خط ذاك الحلم، بين شك يحيد ويقين يعيذ جماحي بمن أهوى.

ران فـي داخلـي هـاجس خفـي، حـرك نوافـذ الغـي والأرق. بـت أسـير سـير مجنـون خلـف مسـاءات الهـوى، كطفـل يشـهق بالشـوق والشـبق، أبحـث عـن صـرة فجـر بـين أزقـة العَتَمـات، عـن الحبيبـة النائمة في ظلال الحدق.

أطرقـت بعيـدا، ماجـت ذاكرتـي بصـور شـتى، شـممت عبـق الجنـون ورائحـة الـودق. جعلتنـي أسـرج الفـلاة وحيـدا، لا أبـالي خطـر أو جلـد غسـق. رغـم انـي لـم ألـتمس اعتبـاراتي، رغـم أنـي بقيـت سـليل ظـن وقلـق. إلا أنـي مخـرت عبـاب البحـر، دون أن أخشـى الغـرق، تركـت كـل شـيء مـن أجـل حبيبتـي، حتـى غزتنـي غبرة الشيب والأرق.

فـي سـعيي بقيـت ألـوذ لـوذ الحمـائم بـين المـاءِ والطـينِ، أسـير وحيـدا فـي درب مهجـور سـير المجـانين، أبحـث فـي عهـدتي عـن سـر الهجـود عـن عشـق البسـاتينِ. أسـير ومعـالم الطـرق تميـد بـالنوى، طـرق لـم تطرقهـا قـدمي فيمـا سـبق، وكـأنَّ قـوة خفيـة تقـودني لاكتشـف أسـرار الـدروب وعصـف الشـبق. ترشـدني إلـى حيـث الهـوى، رغـم المصـاعب والعقـد؛ حتـى كـادت أن تزهـق أنفاسي؛ لولا الوجاهة التي طافت في ذلك النزق.

لأول مـرة لا أمسـك بزمـام أمـري، ولا أشـهد سـحر الرجـاء ولا أسـمع صـوت الـودق، لأول مـرة أتخـبط بوحـل الظـن، بـين أن أنجد ذاتي أو أسير خلف سحر الشفق.

تأوهـت، تثاوبـت، وأنـا أشـعر بضـياع فـي قـرارة نفسـي، أدور فـي دوامـة سـدم لا ينتهـي، أهجـس بالأشـجار قـد تخلـت عـن مفاتنهـا،

تجردتْ من طابع ظلالها، باتت تترنح تحت خفق ظلام دامس، كأشباح تعيق مآرب الذات في العتمة، تهز الخواطر بسحر الخوف والأرق.

كنت أسير على وهج النجوم المتلألئة، مستندا باتجاهي على سذاجة الروح المرهقة ونار الجوى، هجست بها قناديل ثورة مبتهجة، تشتد أنارتها حين يشتد نزق الريح، أحيانا أخالها تتأرجح مع الصخب والخوف المشتط في داخلي، متوافقة مع حجم القلق.

اقتربت من الأشجار وجدتها متعرية، لضخامتها كأنها معلقة بسقف العتمة، كشياطين تحرس الدروب من الحمق والعبث، كأنها تشكي الوحدة والريح بحفها. لم استطع تفسير ما حولي، ما أن أسمع أنين الشجر؛ حتى يعود إليَّ وجلي وشرودي. بت أترقب الخطوة وهي تمضي نحو هدف غامض دون أن أستطيع تحييدها..

خلال تواتر خطواتي، هجست بذاتي تصغي لصدى الأنا، ذلك الصوت المرتد عن أعماقي، الغارق في عربدة الخوف، في خشخشة خشخاش أوراق الشجر المبعثرة في الطرق. أكاد أجزم أني رأيت بأم عيني خيالا يطوف حولي بشكله الهلامي، كانه يرشد خواطري لهدف ما غائر في تلك الدماسة.

مع مرور الزمن زادت الحلكة حلكة، كأنَّ الأشجار المبثوثة عستْ الدروب، فألقت في شجونها الدكنة والعتمة. لذا استتبت في مرافق

الطرق بصور مغايرة، تراءت لي جبال شامخة، كأوتاد شاخصة، كعاهرات الليل يجتذبنّ المستظلين لهنَّ.

لم يكف شفيف الحف مع عبث الريح المجانة، بحيث دفقت الوحشة تخزق خضم ذلك السكون، كأنَّ ذاك الصوت آتٍ من عمق مجهول تدركه غايتي ومرامي.

صرت أتخيل تلك الأشجار أشباح طريدة هنا وهناك، طناطل من الجن تتبع هواجسي. ففي الوقت الذي به أتخيلها تسير برفقتي، أراها تتبعني وترشدني. في الوقت الذي أحسبها مأوى تنتشلني من جنوني ومخاوفي؛ أتجنبها، لأن لا تفترسني أنياب العتمة دون أن أشعر.

حالة من الهذيان، عجنت مشاعري بالتيه والغُربةِ والغَرابة، بالخوف المبرر وغير المبرر، كوني قاصدا وسطا مجهولا دون إرادة، تتحكم بيَّ الاهواء، مارقا بصرة زمن تنافى توقعات الظن. أهجس بها حالة هستيرية تعرضت لها، عسرت ولادة مآربي. هكذا عشتُ تلك الحالة بين انفصام وتردي، متبعا حسن الظن والنية.

في الحقيقة تراءى لي الخوف ككائن أسطوري خرافي يتبع قدري، ففي الوقت الذي به تولد اللحظة، تموت تلك اللحظة. هكذا يستمر الوجود في دوامة اللحظات الغير متناهية، وهكذا يتقلب المزاج بين لحظة وأخرى.... الغريب في الأمر بأن اللحظة التي تموت تعيش في سرمدية الذاكرة، بينما المزاج حين يتغير لا يعود لجذوره. حين نسترجع الماضي السحيق؛ نستذكر اللحظات المارقة بتأنٍ، كلحظات الطفولة التي بقيت عالقة بالذكرة، بينما المزاج كصبغة تتأثر بالظرف فيتغير مع الزمن.

اللحظة التي تمر بنا هي كائن أسطوري تتنقل عبر مراحل العمر، مع أنها تموت باللحظة التي تولد بها، إلا أنها تستقر في جينات الذاكرة، فعلينا تقديس اللحظة. لأنها تُشَيّدُ بروجا في الذاكرة، تلون السماء بلون رغباتنا ونياتنا. وقد تمر علينا كجذاذة تجرحنا، أو كعبق وردة تريحنا وتغرينا.

حينها هجست باللحظة العابرة كأنها غزت ذاتي بوشم الحبيبة، رسمت لي فرصة حياة، تلونت بصفات الحب. على الرغم من أن اللحظة هي قطرة في فضاء الزمن؛ إلا أنها تمكنت من استغاثتي، هجست بها بحرا أقلت مراكبي.

بولادتها تمر علينا وجوه جمة، تسرق من جذوتهم صفاتهم، فتنشرها في سماء الكون، فتنعكس ظلالها علينا، فيكون لها وقع إيجابي أو سلبي على كل من تبجح بالنجوم والقمر، كأنها ترفقها إلينا بتأثير الأبراج علينا.

أحيانا لا يدرك الفرد أهمية زمنه الآني لبطء استيعابه، فتهرب الحقبة من تحت يده، فيسقط كحجر صوان في دوامة التيه.

لذا بتلك اللحظة التي هجست بها ذاتي تنفصل عني، أدركت بأنها سقطت في بركة حقبة جديدة من الزمن، فتتبعت صوت سقوطها. فارتقت بكياني، أثبتت لي حقيقة وجودي السامي في سماء من أحب... حينها تلمستُ وجهي، قدمي، أطرافي؛ شعرتُ بهبة شوق يتدفق من وجنتيَّ، زفيرا ينفث من شدقيَّ. تلمست قلبي الذي اشتدت وثاقه بخيط الخوف كان قد اشتد نبضه، تطمأنت بأني لازلت حيا في

دائرة الوحدة، لم أبتعد عن ذاتي كما أشارت لي ظنوني، والدليل أني أرى الأشياء من حولي وأميزها.

لكنَّي افتقدت ذاتي في لحظات انسيابها فوق تلك البسيطة.. أين أنا؟ أين اتجهت؟ لا أستطيع تحديد المسار وهي تتأوه في دهاليز العتمة. هجست بها كالثعبان تنزع جلدها، حيث دائما ما تعشق التجديد، لقد تحولت لكائن هيولي، لا أشعر بوجودي كحقيقة، أبحث عن كيان غائر بين كومة الأشياء، عن الأنا التي أغشت حدقي وهي تتخبط في دهاليز الذاكرة، في وسط تلك العتمة دون أن أدرك مأربي.

مضيت أتبع ذاتي بين زحمة الأدغال وشعث الأشجار، اجاهر بقدري بين العتمة والوحشة، غارب إلى حيث متاهة مغمورة في أعماق النفس الشريدة، حتى أدركتْ ضوء ينبعث من صومعة قديمة، مهجورة وليست مهجورة.. تبعت خيط ذلك الضوء، بغيت أدرك مرامه وجنونه في تلك الليلة العقيمة من ليالي الخريف الباردة. تتبعت حالتي كذاكرة أسجل عليها ملاحظاتي.

في تلك اللحظة التي توقعت بأني قد أدركت مرفأ الظن، كنت أقف على أعتاب اليقين، أقف أمام باب معبد قديم.. من خلال بعض المارة عرفتُ أنه مسكون بالجنِ، ومع ذلك وجدت ناس تروم إليه، تتقصده تتبع أدعيتها وأمانيها داخله، فغايات الناس ومآربها لا تدرك. ربما جاءت تبحث عن ذاتها التائهة، أو تستكشف ما خفي منها هنا، باحثة عن اللغز الذي فتن إرادتها، أن تحيدها عن الموبقات، جاءت تنسف هياكل مشاكلها وعقدها.

الكثير من البشر يخفون في بواطنهم قروء مشاكلهم، فيختلفون في السلوكيات والغايات والنية، البعض لا يدرك مآربه إلا حين يصطدم بالواقع، وقد يكون واقعا مليئا بالشعوذة والخرافة، أضابير من الضياع يتيهون بها في مبدأ الخطوة.

وأنا بذاتي كأني أصبحت واحدا من تلك هؤلاء الشواذ من البشر، أبحث عن أنصاف الحلول لعقد حياتي في ذلك المعبد. لقد وجدت الكثير من الناس يتقصدونه على الرغم من أنهم مدركون ما يحتويه من غرائب وعجائب قد تكون مهلكة لهم، لكنهم يتعنون إليه لقضاء حوائجهم، وترسيخ عقائد عباداتهم فيه...

المعبد كأنه مسجد أو كنسية قديمة قدم البشر، لكنه محافظ على هيكله في تلك البقعة من الصحراء القاحلة، كنقطة استراحة تتقصده القوافل الراحلة في طرقها نحو البيت الحرام، لذا بنيت عليه الكثير من الأساطير التي أطرقت مسامعي من قبل..

دخلت تلك الصومعة بين خائف مرتعد ومضنوك، حيث الخوف في الداخل يوازي المركون على الوجه وما شعرت به خارج الصومعة، حيث لا يفصل بين الموضعين سوى جدارا يكاد يكون هلاميا، لكثرة الكوات المخزومة فيه، وقد يكون فاصلا حقيقيا بين الشك واليقين.

بدأ الشك يخزق ذاكرتي كضوء منبثق في السدم، تسلق اللحظة التي أبتهج بها. صار يتحول من صيغة لأخرى، من هدوء لافتعال، لفوضى، لسكون، لملامة. جعل تركيزي يشذ عن رأسي كخيط دخان، حيث لا ألتمس مخرجا للعُقدْ المتشعبة بذهني. الرعب خلخل ذرات أثير النفس، أستل حواسي، شعرت بسواد شكله الأشعث وحدة

أنيابه العاجية ماكث أمامي، يلهو بفكري، بل نفذ لداخل أحاسيسي ومشاعري.

بدت خطواتي مربكة وهي تجتاز محراب الباب، مرتعدة، وجلة، شريدا في داخلي، أود الاسترخاء لدقائق، لأطرد هاجس الوسن والوجل عن ذهني.

ما أن اجتزت عتبة الباب حتى سقطت عيناي على ألواح خشبية، مرمية إلى جانب الحائط الأيمن خلف الباب تماما. بحلقت بها، إذ بها توابيت مركونة مع جدار السور، بمجرد أن تعرفت عليها هجست بها تحركت عن موضعها، كأنما استندت على أحد طرفيها، شاخصة بجبروتها تراقب حركاتي. تركتْ في جسدي رجفة زمهريريه، أدارتُ مقود فكري وعينيَّ بفعل الرهبة التي تملكتها، تخيلتها معبئة بجثث موتى. هجست بصراخ مع صرير ريح تطلق صفيرها في أذنيّ بزفيف مخيف، مخترقة شباك القلب لتزيده خترفة وهيافة، دخلت لباحة المعبد وأنا أتبع الداخلين إليها، وإذ بشخص طويل القامة، يستقبلني بابتسامة عريضة، مرحبا بي.. مد يده إليَّ محاولا مصافحتي، على الرغم من أن المسافة التي تفصلني عنه تزيد عن عشرة أمتار أو أكثر، إلا أنه كاد أن يمسك بي، شعرت بكف يده تكاد أن تمسك بتلابيب ثيابي لطول ذراعه..

حينها عرفت بأنه جن المعبد، كان يرتدي بدلة رمادية وربطة عنق برتقالية. من سلوكه التمست طبعه المسالم. ربما يكون من المؤمنين بالله كما أشيع اليَّ من بعض المارة. كأنه خازن المعبد.

حاولت جاهدا أن أسايره، أن ابتسم بوجهه، رغم الخوف الطاغي على مشاعري والارتعاش الدائب في ساقيِّ، فلم أستطع مجاراته. تمكنت من أن التملص من بين يديه، أفلت نفسي من قبضته بحركة لولبية كسمكة صدفية فلتُ من قبضة الصياد، لأجد نفسي أدخل في دهليز ضيق أدى بي إلى صومعة المعبد.

حينها تطمأن قلبي، حيث وجدت نفسي تركن إلى جانب قلة قليلة من البشر، لا يزيد عددهم عن عدد أصابع اليد. هدأت جوارحي بعد ان عرفت بأن هذا الجن مسالم، مؤمن، غير مؤذي. زال ذلك الوجل عن قلبي، على وقع مشاهدة هؤلاء القلة القليلة من الرحّالْة داخل المعبد.

كانت أرضية المعبد مفروشة بسجاجيد خضراء ناعمة الملمس، ما أن أمهيت صلاتي بعد أن أخذت قسطا من الراحة؛ حتى شعرت بظمأ، بت ابحث عن شربة ماء، خرجت مع خروج الرحالة، مارا في دهليز ضيق يؤدي لمسرب الباب الخارجي. ما أن خطوت خطوتين؛ حتى وجدت قطة أليفة، جميلة جدا، ممتدة على محراب غرفة مجاورة تقع في ذلك الدهليز، وكأنها غرفة الخازن أو ما شابه ذلك، كان الباب مفتوحا، في داخل الغرفة يوجد فيها سرير مفروش بفرش غاية في الأناقة والنظافة، مغطى بـ ملأة حرير.

جذبتني القطة لجمالية فرائها، فراء هادل، ناعم، أطرافها بيضاء اللون، تخترق رأسها خطوطا نحيفة سوداء، أشبه بقلنسوة ترتديها، فيما ظهرها مغطاة بلون بنفسجي من أزاهير الأوركيدا، أشبه بسجادة قديفة لطراوتها.

وجدتها تنظر إليَّ وهي قابعة في محراب الغرفة.. لسحرها ورقة جمالها ونضارتها، أجبرتني على مداعبتها، انحنيت عليها.. وبمجرد أن لامستها تحولت لفتاة غاية في الرقة والجمال والأنوثة فيها شبه من حبيبتي، أرتعب منها، تجنبتها على الرغم من سحرها الطاغي. حسناء ترتدي فستانا من الحرير الفيروزي، تخترقه خطوط صفراء وبيضاء، تهجس بها كبدر التمام.

ارتعبت منها، تيقنت أنها جن المعبد، بت أردد البسملة، بسم الله الرحمن الرحيم- بسم الله الرحمن الرحيم. حين التميت مخاوفي؛ كشرت بوجهي، نظرت إليَّ نظرة ازدراء، أظهرت في فحواها حنق وزعل شديدين، عبست، تمددت على السرير المركون في الغرفة، المغطى بلحاف أبيض من كتان بإزار أخضر من الستن اللامع.

كأنها أصيبت بالعناء حين وجدتني افزع منها.. هَمّتْ بالنوم، كاشفة لي عن ساقين ممشوقتين، ممتلئتين رقة وحيوية، موشحتين بالعذوبة والبياض الناصع.. الخوف الذي تقمصني جزل عني الرغبة، شده فكري، شتت انتباهي، فقررت أن أنجد حالي.

يا إلاهي جنية تود الاقتران بي.... لا أذكر كم من المرات رددت البسملة، كنت أشبه بالغريق يتأمل طارئ خارجي ينتشلني من الهوان...وعلى وقع الصخب الذي كان يعترينني امتدت لي يد المعونة، حيث هجست بالسكينة مع انتهاء أحداث ذلك الفلم المرعب على يد زميلي النائم معي في غرفة الفندق مناديا:.....

- أصحى يا كريم ... أصحى لقد اقلقتني.

حينها جلست وأذ بي أعود للواقع الحقيقي بجسدي وفكري وتفاصيل شخصيتي في ذلك الفلم الذي تقمصت به شخصية البطل دون وعي، فوجدت ذاتي ممتدة على سريري. حينها علمت كم أنا بعيد عن ذكر الله وكم أنا مقصر بعبادتي..

جمانة

في ليلة سكينة، كان قد سجى الشوق على أطلال الفؤاد، أقدح قناديل الصمت، فأنارَ فضاء الحلم؛ حتى هجست بعنادل الود ترقص في شرف الامل، فراحت تشدو الروح بذكر الحبيبة...

حلم طاف أروقة الذهن، استباح أبعاد العين وشرفة القلب بشيء من ذلك الوجد الذي أوهن الروح بالرهق. كدت أغرق في سدم العصف والخوف؛ لولا أن جنح القدر أخيرا لواحة الصبر والسكون والودق.

جنحتُ وحيدا أطرق رواق الفكرة، مارا بمزرعة واسعة من العشب، يكتنف أجوائها هدوء دائب، كانت قد غفت الشمس في صرة العتمة، كان الغسق قد نث تباشير غبره في رواق الأفق قبل ساعة من الآن، أي أن العتمة بموجها دكت أطراف الليل. حينها جذبني سكون لشذى فكرة أغشت ذهني، فبتُ أحف الخُطى وحيدا في تلك الدروب المبهمة خلف تلك الفكرة، كأني أسير في رواق عشق قديم تعرفها أقدامي، أتذكر تفاصيل الشكل والمكان، أشبه بمخطوطة كنت قرأتها في طفولتي، شيء من هذا القبيل تصفحت صفحاته.

الـرواق تبـدو ممتعـة رغـم العتمـة، زادتنـي شـوقا وهيامـا علـى اكتشـاف سـر الرغبـة أو الغايـة المدفونـة فيهـا، لا أفهـم حقيقـة هدفي وسر قدري، ونسبة حظي فيما أسعى إليه، لذا تخللت تلك الممرات بشيء من العبث والجنون.

كـان هنـاك إصـرار داخلـي كبيـر يـدفعني إلـى تخطـي عجـز ذاتـي، يحثنـي علـى المضـي قـدما فـي سـراط مسـتقيم نحـو غايـة مبهمـة، لاكتشـف لغـز تلـك الـرواق المهجـورة التـي أغـوتني بغرابتهـا، راغبـا تـذكر معالمهـا وخفاياهـا التـي تبـدو ليسـت غريبـة عـن الذاكرة، كحلم تكرر في ذهني.

وأنـا فـي سـر النشـوى، هجسـت بـذاتي الهائمـة تتعقـب شـعلة ظنـي، هجسـت بنشـاط زهـري يتـدفق فـي فكـري، يهـز جسـدي، يرهـف كيـاني، يقـودني إلـى حيـث غـايتي. لمسـتُ فـي تلـك الطريـق فـيض سـرورٍ خلـج أجـواء ذاتـي، فحـوى سـعادة ذائبـة فـي ذلـك السـكون العـائم والصـمت السـائد، لامسـت حشـف القلـب، تـراءت لـي كحقيقـة سـبغت خيـالي المتـدفق، كنخلـة باسـقة فـي حديقـة ذاتـي، كلما تغزلت بها الريح رشقتني بأطيب الثمر.

هكـذا بـدت لـي الآفـاق متهيئـة لشـفط الحـزن والكآبـة مـن الوجـه، تلـين مـع وقـع الظـرف، بـتُ أنقـب فـي أعمـاق الرغبـة عـن السـر المكنـون فـي ذاك الـرواق، أبحـث عـن اللؤلـؤة المفقـودة فـي أعمـاق النفس، أبحث عن التي أحسبها شمس دائرة في فلك ذاتي..

كنـت سـعيدا جـدا رغـم الشـقاء المثـار أمـامي، رغـم تلـك الأحـراش والأشـجار الباسـقة وضـفائر الزهـور والأشـواك التـي تفتـرش

الطـرق، وعلـى الـرغم مـن أنـي أخالهـا شـياطين ترافقنـي، تتبعنـي، تخيفنـي، فـي الوقـت الـذي بـه هـي ذاتهـا دليـل ظنـي نحـو غـايتي وهيامي.

كـان قـد أذوانـي العطـش وأنـا أسـير فـي تلـك الـدروب دون ونـيس، دون أن أعـد ذاتـي لعـالم المفاجئـات. لـم أحتمـل شـدة النـار التـي أوقـدت فتيـل الظمـأ فـي أحشـائي، لـم اسـتطع أن أقـاوم جمـرة الصـبر التـي كـوت عـودي... حينهـا كنـت قـد أدركـت عـن بعـد بصـيص إنـارة تخفـق بـين الأحـراش فـي بيـت زجـاجي، مركـون إلى جانب خفي من الطريق.

اتجهـت بمعانـاتي نحـو ذلـك الصـرح وكلـي أمـل أن أسـقى شـربة مـاء تـذيب ظمئـي. وانـا سـائر فـي هيـام دون وعـي، كـأن هـاجس مـا كـان يرشـدني إلـى بـاب ذلـك البيـت. يحثنـي علـى البحـث عـن جمانة، عن تلك اللؤلؤة الغائرة في أعماق الشوق.

وأنـا غـائر فـي تلـك النشـوة، صـرت أسـير أتبـع ذلـك النـور المنبعـث مـن قلبـي، لأكتسـح ذلـك المسـاء المغشـي بالظلمـة نحـو قـدري، عسى أن أجد ذاتي الضائعة بين أفنان فلاتها.

وأنـا أتقـدم بخطـواتي نحـو تلـك الـدار، تملكنـي إحسـاس غريـب مـرتبط بمحـيط ذلـك البيـت، حيـث كلمـا تقـدمت خطـوة نحـوه الـدار زدت ظمـأ وعطشـا، وزاد شـوقي عبقـا وفوحـا، وكـأنَّ العطـر المضاع يندح من صدر ذاك البيت المبهج وسط تلك الأحراش.

مـا أن وصـلت الـدار؛ حتـى طرقـت البـاب، ومـا أن طرقـت البـاب؛ حتـى أنفلـج علـى مصـراعيه، بـان خلفـه ممـر فضـي ضـيق، يلمـع تحـت أضـواء قناديـل تحـيط بـه مـن الجـانبين، أشـتد بـي العطـش، نشـز صـبر غـايتي واسـتباقي. وأنـا فـي قمـة ورعـي واندهاشـي؛ لمحـت فـاتنتي تفـك عقـدة صـرة حيرتـي، لتنتشـلني مـن هوة الارتباك والدهشة...

لقـد ذهلـت حـين رأيتهـا وهـي تتقـدم نحـوي بخـطٍ وئيـدةٍ داخـل ذلـك الممـر، منشـرحة الوجـه، مسـرورة الـنفس، فاتحـة آفـاق صـدرها الرحـب لضـيافتي. ومـا أن عـانقتني حتـى ذوى العطـش تمامـا مـن الجسـد، هجسـت بـالروح قـد اسـتكانت فـي وهـدتها، والقلـب خـلا اضطراباته.

استفسرت منها متعجبا:.....

- يـا تـرى؛ مـن أرى! جمانـة!! أأنـت هنـا وأنـا أبحـث عنـك بين الأروقة الحيرة؟ كيف دخلتي إلى هذه المتاهة؟
- أنا أعيش هنا! هذا بيتي! لا تتأبط العجب، تفضل أدخل.

...دخلـــت بقـــدمي اليمـــين متفوهـــا بالبســـملة، وإذ بالأضـــواء تحاصـــرني مـــن كـــل جانـــب، مـــن فـــوقي وتحتـــي، وعـــن يمينـــي وشـــمالي... قـــادتني نحـــو غرفـــة نومهـــا ذات الأضـــواء الخافتـــة الورديـــة، والتـــي تشـــرف علـــى حديقـــة واســـعة مـــن الـــورود البهيجـــة، الملونـــة، مـــن جـــوري وكـــادي وفـــل وياســـمين ونـــرجس وقرنفـــل وكاميليـــا وشـــقائق النعمـــان وجلنـــار وأوركيـــدا وتوليـــت، باقـــات وباقـــات تحـــيط بمســـبح لطيـــف يحـــيط بالبيـــت، تـــرى زلال مـــاء

يتـدفق مـن صـخرة ملسـاء، بحيـث ممكـن أن أرى الأحجـار والأسماك تسبح فيه..

دخلت غرفتها التي بدت لي دائرية الشكل، ترتكز قاعدتها على حوض الأسماك، فيما يشغل سقفها فسيفساء يشتعل بهجة تحت بهرجة أضواء الثريا من الكريستال الملون. يوسط غرفتها سرير دائري من عظم عاج، كأنه معلق بحبال في السقف، يرتبط بوصلات رفيعة من أستيل مذهب، مبطن بفرشة وثيرة من قطن خالص وشراشف مزهوة زهرية الشكل من حرير السوسن والاستبرق. هذا السرير تتحكم بارتفاعه عن الأرض بريموت كونترول.

يكاد سقف الغرفة المناط بها يكون أشبه قبة رصد فلكية أو مزار معين، مرصع بأختام نجوم لامعة وتوابع من أحجار كريمة منوعة، مصفوفة بشكل فسيفساء جذاب تغيث القلوب العاشقة، يزخر بها زخرفة من عقود وقلائد براقة من عقيق وفيروز وتوباك وماس وأنواع أخرى من المعادن والأحجار الكريمة لا أعرف لها أسماء، حتى أشعرتني بنفسي كعنصر غريب يجول وسط الدهشة، كأني بها العنصر الغير مناسب في تلك البقعة العجيبة.

باتت جمانة تتحرك بين تلك الأضواء كحورية وهي ترتدي ثوبا من حرير شفاف، يتدرج ألوانه بين أصهب فاقع وزرقة موسومة بالبهاء، لتزيد الأجواء بهجة وإضاءة. كأنَّ الضوء

يـنعكس مـن علـى الجسـد لرقـة بشـرتها الأملـد ونعومـة ملامحهـا الوضاءة.

بـان لـي ذلـك الجسد تحـت الثـوب الحريـري متوهجـا كـوهج الجمـر تحـت الرمـاد، يتمـاهى تحـت سـحب هلاميـة رقيقـة، ديباجهـا المخملـي البـراق مشـبع بخيـوط مـن الإبرسـيم اللمـاع، يعكـس ضـوء الثريـا علـى ثنايـا الغرفـة، كأنـه يمـتص إشـعاعه مـن نـور جسـدها.. وجـدت نفسـي مرهونـة بقيـد سـحرها، منقـادة بحزمـة الأشـواق لنميـر ذلـك الحسـن المبجـل، مكـوي بالنـار المشـعة مـن براكين جسدها الأهيف.

وأنـا فـي غيـي لـم أشـعر بـذاتي حـين امتـدت يـدي لتصـافح نعومـة يـدها، وكـأني لامسـت جمـرة مـن لهـب الشـوق الـذي أغـواني. مـا أن احتضـنتني برقـة الملهـوف؛ حتـى شـع دفء سـليط مـن صـدرها النـابض، المفعـم بطـراوة النهـد وفـيض عطـر أنفاسـها، جردتني من قيافتي.

لـم اشـعر بـذاتي حـين طوقتهـا بـذراعيَّ، وحـين غرسـت شـفتي بجمـر شـفتيها، حتـى أمتـزج رضـابي برضـاب شـدقيها، حينهـا هجسـت الـروح تلتـف علـى جسـدها كخـيط دخـان ينفـث مـن كـوة هواها.

وأنـا مـنغمس فـي حضـنها، لمـس قلبـي خـافق قلبهـا، استشـعرت بإحساسـها، احتضـنت رفيـف حسـها. برحـت أتأمـل مفـاتن ذاك الحسـن والولـوج بـين شـطآن غواهـا، أتنقـل كالفراشـة مـن زهـرة لأخـرى أبحـث عـن الشـهد الكـامن فـي ثناياهـا. أهـيّجُ حراشـف

الشبق بدفء القبلات، أنث ودا من فيض الغزل فوق الملذات، أتبع سطع النور المبرق، أتنقل على وقع الشد والجذب بين رقة الشفاه وأسيل الخد، أتمعن بشموخ الأنف وواحة العين، انساب كنمير على سطح الجسد، أجنح هنا وهناك، خلت سرتها كعقيقة وسط موج البطن، لمست طراوة الجسد، هجست بها تسوقني لفردوس جنتها.

غسلت ذاتي بوهج ذلك الحسن حتى اشتطت اللذة من مرافق الشهوة، حتى امتزجت المشاعر وتداخلت الأهواء وتلاحمت النفوس في بودقة شبق واحدة.

وبعد تلك العجة التي عصفت بنا أرتقى الوله قمة الجنون، جنحت النفس لفض العقد، شعرت بجسدها قد ذوى في جسدي، ذاب كالثلج بنار شبقي وجنوني.. مثلما أصابتني سهام فتنتها خرت هي الأخرى بنار وجدي، أسطلت الأفئدة بنار الشوق والهيام.

كان لابد من ختم مرحلة الوله بارتداء تاج المحبة والهوى، حيث انتصب الوتد وتوقدت الأنوار في جعبها.

وأنا منشغل بالشغف والهيام؛ إذ أنصبت عينيَّ على شاخص عمود الكهرباء المركون وسط حديقة الجانبية.. وقبل أن تستحكم الهواجس بنا وتغرق مرافقنا مراكبنا بأتون اللذة؛ أقبل ذلك العمود يتحرك نحونا، يقترب منا. وقبل أن تمتزج مشاعرنا فوق السرير الوثير؛ برقت منه ومضة ساطعة قوية كبرق ساطع، بحيث غطت على أنوار البيت وما حوله. وكأنَّ

طاقة إضافية شحنت مصابيحه فتوهج كوهج الشمس ثم هفا ذلك النور في جوف العتمة، فأصاب المكان كله بعتمة بليغة. أطفأت مصابيح البيت عن بكرة أبيها، إلا من نور خافت بقي ينسل من جسد حبيبتي. صحب ذلك البريق هدير صوت مرعب كالرعد، اهتزت له جدران البيت، فتهشمت معظم المرايا والأباريق الزجاجية. اختفت تلك البهرجة من حولنا تماما، نزعت المشاعر عن اجسادنا، بت أشعر بالفزع والخوف وبنحول الجسد، خفت على حبيبتي من أن يصيبها هول من ذلك الوجل، كأنْ يهوى البيت بنا أو يحترق.

تمعنت فيما حولي، لم أجد ما يثير الانتباه، دار صمت بيننا، غطى على هوس أشواقنا، هدن الوضع لبرهة ثم استتبت قرقعة وسط ذلك الصمت حتى استوت جلجلتها على تفكيرنا، تلاش ذاك الصمت، قوة ما قبضت على أنفاسنا، أطرقت مسامعنا جلجلة أقدام غليظة وسط الغرفة.

استدرت نحو ذلك العمود مرة أخرى وإذا به قد تغير شكله وبان أشبه بوحش ضخم طويل القامة، في وجهه ابتسامة استهزاء صفراء. حينها تجمدت عروقي، ودت الروح أن تنفر من مخبئها، حاولت أن أتدارك أمري وأهرب من المكان باختطاف جمانة، حاولت أن أنبهها عن ما ترى عينيَّ، هجست بها ذوت بين يدي وكأنها افتقدت وعييها. وفي محاولة يائسة للتعلق بذوائب الحياة حاولت سحبها، وأذ بها تماهت ثم انسلتت كخيط دخان تلاشت في ديباج الوحشة المحيطة بنا..

كل شيء تغير من حولي بسرعة البرق، وما أن عدت لرشدي؛ حتى وجدت تلك الفتاة البارعة من الجمال قد تحولت لوسادة ناعمة بين ذراعي، وأنا أشد عليها بقوة شرودي وفزعي خوفا عليها من المجهول..

هكذا أصابتني رعشة وأنا أنظر إلى وجه ذلك الشبح المبتسم عبر الحاجز الزجاجي الذي يحيل بيننا. ما برح أقترب بخطواته متخطيا الحاجز كضوء مستطير، ما أن أخترق الحاجز حتى تشظى في أرجاء الغرفة، من خلال الانعكاسات وانكسارات صوره على جدران الغرفة، بحيث بت أراه ينفذ إلي من كل زاوية. أنقلب شكله لشكل قبيح جدا، أضحى بمنخر مسطح وأنياب كأنياب مصاصي الدماء. عيناه مبيضتان، شعره داكن متطاير كلهب النار، يكسو جسده شعر كثيف، له أضافر كمخالب النسر. تراءى لي بصورة شيطان أو زومبي أفلام الأمريكية المرعبة، أو كما وصفته لي جدتي حين كانت تقص علينا قصص السعلوة والطنطل.

بدت أرتجف وأرتعش وأنا مغشي فوق الوسادة، تغير المنظر تماما، هجست بذاتي وكياني جالس فوق حوض قبر دون أن أعلم...

مع تغير الموقف تغير شكل حالي، صرت أصرخ بكل ما لي من طاقة ليصل صوتي لأبعد مدى، عسى أن أجد من يسعفني وينقذني، زادت الرعشة في جسدي مع دقائق الزمن، هجست بفخذي تبللتا بماء دافئ، وكأني قد أرقت البول دون إرادة،

تصـبب جسـدي بـالعرق الغزيـر مـن راسـي لأخمـص قـدمي خوفـا ورعبا.

حاولـت أن أجـر ذاتـي وأبتعـد دون أن أسـتطع تحريـك جسـدي الأجدب عـن موضـعه، حاولـت ازحـف بكـل مـا لـي مـن طاقـة، أن أحـرك يـدي المشـلولة لأتشـبث بعـارض مـا دون جـدوى، كـأني أصـبت بشـلل عـام وجمـود وفـزع.. كنـت أشـعر بـأن صـوتي لـم يتجـاوز أسـوار ذاتـي، كـتم علـى أنفاسـي، دون أن يحـاول ذلـك المخلوق من أن يؤذيني أو يفترسني.

شـعرت بنهـايتي قـد أذنـت، الهـوة سـحيقة تحـت قـدمي. أسـتمرت حـالتي علـى تلـك الـوتيرة، فاقـدا إحساسـي بـذاتي، فلـم أشـعر إلا علـى صـوت التلفـاز الصـاخب والـذي بـه يصـرخ المعلـق الرياضـي بـأعلى صـوته علـى تسـجيل الفريـق العراقـي الهـدف الأول ضد المنتخب الإيراني.....

يـاه؛..... نتيجـة الإرهـاق كانـت قـد أغشـتني غفـوة لـدقائق معـدودة، وأنا جالس على كرسيي أنتظر بدأ المباراة.

حينهـا تلمسـت فخـذي وملابسـي فلـم أجـد تغييـرا فيهمـا، حمـدت الله واسـتغفرته، ثـم قـرأت آيـة الكرسـي والمعـوذات، ثـم برحـت أغسـل وجهي لأعيد التوازن إلى جسدي المهلهل.

انذال

خلال مسيرة حياتي تعرضت لمواقف وصدمات شتى، كشفت لي عن حجم النذالة المدفونة في نفوسهم البعض من الذين كنت أعتبرهم رفاقا لي وأقرب الناس لنفسي. والأدهى من ذلك استخدمت معي تعابير تنم عن قلة ذوق مقابل الطيبة التي أغدقتها في صحبتهم. والمثل يقول (يجيك البرد من الرجلين).

لم أكن أتوقع أن أشم زنخ نذالة أناس كنت أحسبهم الحبل الوريد لعلاقاتي بالمجتمع، لاعتمادي عليهم أحيانا في تكوير صداقاتي، لتعلقي الكبير بهم من جهة والرفقة الطويلة لهم من جهة أخرى.. كنت أحسبهم بمثابة عمود النور لطرقي، أتوشح بهم أمام الآخرين..

هؤلاء أحسبهم أشباه الرجال، لِمَا لسلوكهم الجلف من شينة التصقت بهم، عبثت بصورهم والتصقت بذاكرتي إلى الأبد. تلك الدلالة عرت نواياهم، كانت بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، أخلت بقيمهم، جردتهم من صيغة الاحترام والتقدير، هزت أركان تواجدهم في أبعاد العمق ثقافي والديني والأخلاقي بعد أن جردوا من قاموس المعاني تماما.

هؤلاء نموذج قذر، حشرهم الظرف كعارض ضارٍ في أجواء ظرفي، جمعتني الصدفة بهم على مقاعد الدراسية أو الجيرة أو العمل ...الخ. وبذلك اعتبرتهم خردوات كراكيب المعرفة والزمن. الزمن كشف حقيقة معدنهم الدنيء، وزيف أخلاقهم النترة، المنتنة.

لقد عروا أنفسهم بأنفسهم، أو أعرهم الله ليحذرني منهم، طفحت اعمالهم كنقاط سوداء في صفحات تعاملي معهم، لاكوا الطفولة والعشرة بسواد المواقف، خرطوا صفحات الماضي بمشارط أنانيهم.

آه... كانت قد أغشت عيوني سحب ضبابية، كأني كنت مصاب برمد العيون والعجب، ألهتني عن فطنتي طويلا، لم أمعن تلك الشوائب في كعوب الكؤوس إلا بعد الاحتكاك والتجربة. بقدر ما آلمني سلوكهم المشين؛ فرحت باكتشافي أصل معدنهم الرخيص، لأتجنب غلهم في المستقبل. تركوا لكاكهم في ثوب العشرة..

*****

أولا: (ج ع - ح د)

بعد مرور شهرين تقريبا من تواجدي في صنعاء كمدرس في أحدى مدارسها، أرسلت الحكومة العراقية بعثة تدريسية لليمن فيها ثلاثة من زملائي المقربين، وصلت البعثة صنعاء نهاية الشهر العاشر. خلال ثلاثة أيام تم توزيعهم على محافظات اليمن، أنتسب الاستاذ (م ص) لمحافظة إب، فيما أنتسب كل من الاساتذة (ج ع) و(ح د) صنعاء. للعلم كنا زملاء مرحلة.

كوني سبقتهم لليمن بشهرين؛ صرت الدليل خبيرا في المدينة ومضيافا لهم، لذا أخذتهم في جولة بشوارع صنعاء، عزمتهم على مأدبة غداء، كنت أهجس ذلك واجبا أخلاقيا لاستقبال زملائي وأبناء جلدتي. حينها كنت أعمل في ورشة إصلاح الأجهزة الكهربائية كعمل إضافي بعد الدوام الرسمي.

بعد أن غادرنا (م ص) لمدينة إب، صارت لقاءاتي بـ (ج ع) و(ح د) تحكمها الصدف، كونهم قد اندمجوا مع شلة من زملائهم الجدد المعارين من قبل الدولة، فاشتركوا في المصير والسكن. مع أن أغناهم كان لا يحمل في جيبه 200 دولارا أيام الحصار الذي فرض على العراق من قبل أمريكا وحلفائها.

وبمرور الأيام ضاقت بهم السبل وشعروا بالحرج المادي، وبفرضية الألفة الجديدة عليهم. هجست بذلك من خلال فراستي، حين كنت ألتقيهم صدفة في مقاهي وشوارع صنعاء بين فترة وأخرى. حيث شاهدتهم كمجموعة من خمسة أشخاص، يقودهم الاستاذ فائز ذات الأصول الموصلية. ربما كان أقدمهم درجة في حزب البعث آنذاك، أو أكثرهم ثقافة فطواهم في جعبته، أو شيء من هذا القبيل بحيث بان تأثيره واضحا على أفراد المجموعة، لذا في ذاتي كنت أصفهم أشبه بالخرفان في تتبع شاهدها أو دليلها.

لذلك كانت لقاءاتنا نادرة تحكمها الصدف. مع مرور الزمن أصبحت فاترة، خالية من الوشائج الحميمية والألفة مثلما كانت فيما سبق، ربما أصيبوا بزهو التعيين.

بعد مضي شهرين من قدومهم، ألحا عليَّ أن أشاركهم السكن لنجمع الفتنا حسب ادعائهما، علما أني كنت أسكن وحيدا في أحد اللوكاندات (فندق شعبي). لقد وصفوا لي مكانهم بالمريح والواسع، حتى تمكنا من إقناعي بذلك. نزولا لرغبتهم وحرارة

مشاعرهم، وافقت على مقترحهم، حيث وجدت في تجمعنا نعين بعضنا على ظرف الغربة المرير.

وفي اليوم التالي حملت أغراضي واتجهت لسكنهم.. من اللحظة التي دخلت بها الدار، اكتشفت بأنهم في حقيقتهم لم يفكروا قط بمصاحبتي أو بمصلحتي قدر همهم في إيجاد من يشاركهم أجرة السكن الثقيلة التي كانوا يدفعونها، ليخف وطء الحمل عن كاهلهم.

كانت الدار تتكون من أربعة غرف واسعة وحمامين ومطبخ مشترك، إيجار الشقة أربعة ألاف ريال شهريا، هذا يعني كل منهم يدفع مبلغ 800 ريال شهريا. وبمشاركتي سيدفع كل منهم 500 ريال، على اعتبار أني حجزت غرفة لنفسي إيجارها 1000 ريال..

دخلت الدار مساء يوم الخميس، وقبل غروب الشمس بساعة تقريبا.. وفي صباح الجمعة زارني (ج ع) و(ح د) في غرفتي، كنا فطرنا معا الشاي والجبن، ثم استأذنتهم لأتبضع بعض المستلزمات الخاصة للسكن الجديد. تركت الشقة في تمام الساعة التاسعة صباحا لأعود قبل صلاة الظهر بحدود الثانية عشرة ظهرا، بعد أن تبضعت بعض لوازم الغسيل من صوابين وأدوات حلاقة وأبريق شاي وقدر طبخ، وأشياء أخرى لا أتذكرها... كان لكل منا مفتاحه الخاص بالسكن....

وما أن فتحت باب الدار حتى أصبت بدهشة، وجدت الشقة تصفر بهدوئها، لا يكتنفها أية ضوضاء، كأنَّ أصحابها

أموات، خالية تماما من أية دلائل تشير إلى أن الشقة مسكونة وكأني دخلت كوخا مهجورا. شقة تسكنها الأشباح، بعض التركات متناثرة في أرجاء الشقة من أوراق ولوازم وكراتين غير ضرورية، يعبث بالسكن سكون مخيف، كأنها قد تعرضت للسطو، الغرف مفلجة الأبواب ومفرغة من محتوياتها تماما، صوت خرير ماء يتدفق من صنبور المطبخ، كأنهم قد نسوا سداد كاكه لعجلة من أمرهم، كأنهم وجدوا فرصة الهرب قبل أن أعود أدراجي.

يا للهول أين ذهبوا؟ قبل ساعتين فقط فطرت معهم، قبل ساعتين كانت الشقة تعج بالصخب والآن يطرقها سكون موحش. شعرت بها قبر لا تسع هواجسي.

دلفت لغرفتي وفي قلبي رجفة من سوء الظن، وجدت أغراضي على وضعيتها، لم يمسسها مكروه، مرمية في زاوية من الغرفة بجانب فرشة منامي على أرضية الغرفة، لم تكن هناك أسرّة، ولم أكن أصف اغطيتي بعد النهوض صباحا.

لفتت انتباهي قصاصة ورقية مرمية على مخدتي. أخذت الورقة بيد ترتجف، نتيجة الصدمة. صرت أمعن ما خط بها، عرفت من الأسلوب والخط قد كتبت بيد الاستاذ جمال، الورقة قبل أن يكتب بها ملاحظاته كانت مطوية أربعة طويات، كأنها كانت معدة سابقا قبل أن أخرج للسوق، هكذا خيل إليَّ.. كان النص قد كتب على عجالة وبالشكل التالي:....

(نحن كمجموعة نعتذر منك، حيث انتقلنا إلى سكنٍ جديد، وناسف لأننا لم نخبرك بذلك، حيث السكن الجديد يستوعب خمسة أفراد فقط وأنت سادسنا)!!!!..

واو والف واو، ما هذه الأخلاق الراقية؟!!!.يا إلاهي، ما هذه القباحة، قبل ساعتين فقط كنا نفطر معا، ولم أأتي لأسكن معكم إلا بعد إلحاحكم!!! أية صيغة هذه التي تتعاملان بها معي؟ إلى أي درجة وصلت بكم القباحة والخسة والنذالة والقذارة النافرة، يتأسفان بعد أن ورطاني بسكن لم يحتملوا أجرته، أنها قمة الحقارة.

بتقديري احتقروا انفسهم دون أن يدركوا حجم الإذلال الذي نصبوه لذواتهم. كانوا قد عروا أنفسهم بسلوكهم المشين، الوقح، وقلة الذوق والنذالة؟ فلم أشاركهم السكن سوى سويعات فقط، ليكشفا لي الخسة التي يتمرغا بها..

ما أغاضني هو وجود نية الانتقال من الشقة قبل أن يُدعياني إليها. وأكيد الانتقال كان رغبة مسبقة واتفاق سابق وليس وليد لحظة، ثم الشقة التي تسع خمسة أشخاص تسع ستة.. ومن الطبيعي التخطيط للسكن الجديد كان جاهزا قبل سويعات الفطور الذي فطرناه، فكان من الأولى إبلاغي بالنية والاعتذار قبل رحيلي للتبضع...

ما يغص في النفس هو كوننا أبناء جلدة واحدة، وزمالة مرحلة واحدة، وكل الذين عرفوهم غرباء، زملاء ظرف عابر. فالذي

فـي دمـه فـايروس خبـث، دائمـا مـا تكـون ابتسـامة صـفراء. وأنـا بدوري لن أتحسف على نعل تقطع في قدمي.

بعد مرور أسبوع من عملهم الشنيع، التقاني في أحدى مقاهي ساحة ميـدان التحريـر، صـارا يعتـذران، رميـا المسـؤولية بعنـق قائـدهم. ولكن؛.... هيهات الاعتذار يصلح ما كسر.

*****

ثانيا: راضي عساف و (م ص)

بعـد أن انتهـت السـنة الدراسـية الأولـى فـي الـيمن، اسـتلمت مبلـغ قـدره 2500 دولار كراتـب عـن سـنة دراسـية تـنقص ثلاثـة أشـهر عـن بـدأ العمـل. خـلال هـذه السـنة كنـت قـد تعرفـت علـى الأسـتاذ راضـي مـدرس الجغرافيـة فـي مدرسـتنا، وهـو مـن أصـل فلسـطيني كـان قادمـا مـن الامـارات برفقـة صـديقه العراقـي شاكر.

كانـت شخصـية راضـي محبوبـة جـدا مـن قبـل الجميـع، لثقافتـه وفرفشـته وابتسـامته، يكـاد لـه درايـة بكـل مجـالات الحيـاة وتفاصـيلها، كـان ذات صـفات جذابـة، شـعره الأشـيب يزيـده وقـارا واحتراما. هـادئ، رزيـن، لبـق، لـه قـدرة هائلـة علـى الأقناع والتعبير بشكل مذهل.

لـذا تجـده مقبـولا لـدى الجميـع. كـان أشـبه بالحربـاء يسـتطيع أن يلـون جلـده متـى يشـاء، يتعـايش مـع ظـرف، علمتـه الغربـة

والقسوة تجاوز حالات الصعاب بيسر. كونه فلسطينيا، فأنه مشردا بالفطرة. عمره الخمسيني وطوله المتوسط يضفيان عليه صفة البرجوازية. لقد اعتبرته قدوة لي وأنا في مقتبل العمر.

كان قد درّسَ في الإمارات قبل أن يُبعد عنها بعد حرب الكويت مثلما أخبرنا بذلك لكونه فلسطينيا، عقابا على صف القيادة الفلسطينية إلى جانب العراق ضد الكويت. علما أني حين دخلت الإمارات؛ تفاجأت بوجود عدد هائل من العراقيين والفلسطينيين يعيشون فيها دون عقد. هذا يعني قصة أبعاده كونه فلسطينيا قصة مفبركة لا تنم للحقيقة بصلة، وأكيد أبعد لخبث عمله لما يحمل من خسة ونذلة في مجال النصب والاحتيال وما شابه ذلك. على أية حال كان قد فتح ورشة تجارة برفقة صديقه العراقي شاكر في شارع هايل.

الصديقان المتحابان صارا يعملان في مكتب استيراد وتصدير وهو في الحقيقة (مكتب نصب واحتيال) في مدينة صنعاء، في شارع هايل. كان ذلك في سنة 1992 – 1993. وكنت قد دخلت المكتب مرتين فقط للتهنئة ومعرفة طبيعة العمل. حينها لم أجد فيه شيء يلفت النظر سوى بعض الكراسي وشاشة كومبيوتر. في وقته كان الكومبيوتر حديث العهد، وله وقع خاص في نفس ما يشاهده، لندرته وقلة من يعرف استخدامه، كان الكومبيوتر يعمل على نظام الدوز وبسرعة 10 – 20 ميكا بيت بالساعة، أي كان شديد البطء.

كان الكومبيوتر يعطي قيمة للمكتب أكثر من أنه جهاز تعامل وتخزين معلومات، كان يبين حجم التطور الحاصل في المكتب. كما أني لم أشاهد أية بضاعة في المكتب ولم أجد زبائن فيه ولم التمس أي عمليات تخص طلبيات الزبائن. لذا لم أفهم نوعية العامل.

فيما سبق كنت قد شاهدت جهاز كومبيوتر في بغداد عام 1980 في منطقة الميدان، وكان حجمه يشغل مساحة صالة كاملة 8*12 منصوب على شكل خزائن (دواليب) عديدة متراصة ثمانية إلى عشرة دواليب كبيرة.

أستغل راضي بساطتي وطيبتي ومحبتي له، واحترامي الزائد.. ففي اليوم الذي استلمت فيه المرتب؛ كنت قد زرتُ مكتبه برفقة مجموعة من مدرسي المدرسة قبل موعد سفرنا لدولنا لقضاء العطلة الصيفية.. وأمام هؤلاء جميعا طرح فكرة شراكته بالعمل.

ثم أتجه إليَّ قائلا:.....

- ما رأيك يا أستاذ ياسر أن تدخل شريكا معنا في المكتب؟ لمحبتي وتقديري لك أقترح عليك ذلك، ستستفاد بقدر ما تدفع.

من جانبي فهمت أنه فضلني على أقراني، لصدقي ونظافتي وطيبتي، ومن جانب آخر وجدت عرضه فرصة لأفهم ما يدور في سوق التجارة وما تطلبه الحياة.. في الحقيقة أنه

أستغل بساطتي وسطحيتي في هذه الأمور ليلتف على رقبتي بخبث كثعبان، لدناءة ونقص مغروس فيه.

كان اقتراحه أشبه بقنبلة موقوتة رماها في حجري، حري عليَّ أن أرد عليه بالسلب أو بالإيجاب وإلا فأنها ستنفجر وتقتل الفرصة المتاحة أمامي، لأنها فرصة يجب أستغلها، وإلا ستزهق الفكرة ويضيع الحلم.

في اقتراحه وجدت متنفسا جديدا يعتقني من قيد الوظيفة الحكومية، لأجد متنفسا للانخراط في سوق العمل ومعرفة ألغازه. وددت أن أبدل جلدي، أن أكون أنسانا جديدا لا أرهق ذاتي بالتفكير المحدود، خاصة كنت قد جربت العمل الحر واستلذذت طعمه في ورشتي، عرفت قيمته، حيث كنت أجني من الورشة مبالغ أضعاف ما أتقاضاه من مرتب. فقلت له:...

- كيف أشاركك؟ وأنا لا أعرف شيء عن عملك وبماذا تعمل؟ وليست لي خبرة تعينني على ذلك.
- يا أخي أدخل شريك معنا وستتعلم الصنعة خلال أيام، فلولا محبتي لك لما اقترحت عليك ذلك.

بصراحة؛ كان قد أغراني في عرضه وأقنعني بلسانه، فقلت لذاتي لِمَ لا أجرب حظي معه، وأتعلم صنعة لها قيمة تسند مستقبلي، صنعة أرقى من عمل الورشة التي تجلب لي المشاكل ووجع الرأس مع الزبائن. حيث دائما ما يتطلع الأنسان للأفضل. وبصراحة العمل مع الأستاذ راضي غنيمة،

كنت أنظر له بثقة مفرطة، لثقله وقامته وخبرته الواسعة في مجالات الحياة، حتما سأستفاد من خبراته.

وافقت على اقتراحه، وددت أن أنطلق لعالم أوسع خيالا وأكثر بهجة، بعد أن تلطخت ثيابنا بألوان البؤس والشقاء جراء الضغوطات النفسية التي تعرضنا لها في العراق.. لذا قدمت له مبلغا قدره 1500 دولار بكل بساطة (كان حينها مبلغا قيما)، وأمام أنظار الجميع. حتى أني لم أناقشه عن صيغة العمل، وكيف أبدأ، ومتى أعمل؟ والحقيقة كان همي أن أتعلم منه مهنة خارج إطار الوظيفة.

بعد ثلاثة أيام التقيته صدفة في شارع العام، كنت خلالها أتجول مع الزميل عزيز في شوارع صنعاء...سلم علينا وقال لي:....

- أنا آسف يا أستاذ، أود أن تعتبر المبلغ الذي قبضته منك سلفا لي، لأني كنت أخجل من أن أخبرك بالضائقة المالية التي أمر بها. وأني على استعداد أن أعيد لك المبلغ متى شئت.

بصراحة لم أستوعب الحدث، أهذا ما أفرزته قريحته من أسلوب ملتوي؟ كيف تحولت الشراكة في العمل إلى سلف؟... أهذا هو الأستاذ راضي؟ أين كياسته؟ أين مبدئه وثقافته؟... هل عجز أمام هؤلاء من قول الحقيقة؟ هل من المعقول أن يتصف بالنصب والاحتيال؟.. من يضمن أن يعيد حقي لي؟ لقد صار يساورني القلق!....

لكنه الأستاذ راضي! صاحب الأخلاق الحسنة واللسان الطيب. يا أله! أنه فعلا أظللني بالمكر والخداع... رغم ذلك تصرفت معه بكياسة دون أن أحرجه، شعرت بتوسل في عينيه الخجلة، و لشيبته ووقاره وانكساره قلت له:.....

- لا عليك يا أستاذ، دع الف دولار عندك، وأعد لي 500 دولار، من المحتمل أكون أحتاجها في العراق، فالأنسان لا يقرأ ظرفه. ولكن بشرط أن تعيد إليَّ المبلغ، متى ما أكون بحاجة له.
- وهو كذلك، سأكون جاهزا لرده متى شئت.

أخرج 500 دولار من جيبه وأعادها لي، شاكرا تقديري له.

خلال عودتي للوطن؛ شاءت الأقدار أن أتمم نصف ديني دون تخطيط مسبق، وكنت قد أتصلت بالصديق أبو فادي الذي أدرس أبنه. طالبت منه أن يستأجر لي سكنا، كوني سأجلب معي زوجتي. كان رجلا دمث ألخلق، كريم النفس، طيب الطباع. لن أنسى فضله وتعاونه واستقباله لي ما حييت....

خلال مراسم الزواج كنت قد صرفت كامل المبلغ الذي بحوزتي، وكان يعد مبلغا كبيرا جدا أيام الحصار الجائر، الذي كان مرتب الموظف ثلاث دولارات فقط.

بعد الزواج كنت بحاجة لمصرف الطريق فقط، من فندق ومطعم في عمان عاصمة الأردن؛ حتى أصل صنعاء – حيث

بسبب الحضر المفروض على طيران كان لابد من السفر لليمن والعالم عبر الأردن.

هنا فكرت بأقرب صديق لي، وهو الأستاذ (م ص) أبن محلتنا وصديق الطفولة، وكونه مدرسا معي في اليمن، وكوني كنت قد أسديت له ولعائلته خدمت جليلة خلال حرب إيران تفوق الوصف، وكوني عاملته معاملة حسنة خلال استقبالي له في اليمن...الخ. فاتجهت إليه طالبا منه المساعدة لغاية أن أصل اليمن منعا للأحراج أمام زوجتي.

حينها كنت قد توسطت لأخيه بطلب منه عند أخي الأكبر، الذي كان يشغل منصبا مرموقا في الجيش خلال حرب إيران، لينقله من خطوط الجبهة الأمامية إلى داخل مدينة بعقوبة بصفة انضباط تحت أمرته.

الحقيقة أنا واستاذ (م ص) نكاد لا نفترق إلا ما ندر، سواء خلال تجوالنا في الشوارع المدينة أو في الرحلات المكوكية أو خلال جلوسنا في المقاهي...الخ.. لذلك اعتمدت بحاجتي عليه مقابل المعروف والإحسان الذي كنت قد قدمته له سابقا، متحزما بالمقولة التي تقول - **الحر هو من راع من أحسن إليه**، حيث من العار أن يتخلى الصديق عن صديقه وقت الضيق...لذا قررت أن أستلف منه مئة دولار فقط، ليعينني على جلد الطريق منعا للأحراج أمام زوجتي.

ذهبت إليه قبل السفر بيومين وأنا كل ثقة سيقدر موقفي ويعينني على حرجي. فقلت له:..

- حبيبي (م)؛ أنت أقرب الناس إليَّ، فلا أخفيك سرا، أنا بحاجة لمساعدتك، لقد صرفت ما في الجيب على الزواج ولم يبقى بمعيتي شيء على ما يعينني على تجاوز الطريق. أرجو أن لا تحرجني وأن تسلفني مبلغ 100 دولار فقط منعا للأحراج أمام زوجتي، وللعلم أني قد تركت ألف دولار في صنعاء، بمجرد أن نصل سأعيد لك المبلغ.

رد علي بجفاء وبأسلوب صلف لم أستوعب فعله، حيث قال لي قاطعا حبل الوصل:...

- آسف لا أستطيع تسليفك! !

اندهشت! لأنه أقرب الأصدقاء، وأني صاحب فضل عليه. بقيت مبتسما بوجهه، غير مصدق ما أسمع، وفي مخيلتي حسبته يمزح معي. فقلت له متعجبا....

- هل أنت جاد في ردك ؟ أم تمزح؟
- نعم أنا جاد لن أسلفك!.

الححت عليه وكل توقعي بأنه يمزح معي، فقلت له..

- أنأ أخوك، لا تحرجني أمام زوجتي، نحتاج أن ندخل مطعم أو فندق أو نشتري حاجة ما، الوقت يداهمنا فلا مجال أمامي.

فرد علي ردا قاطعا مخزيا، أغلق مجال المحادثة تماما، حيث قال:...

- والله لو تطلب مني درهما واحدا لن أسلفك إياه.!!!!.
- الله واكبر!! ما هذه البجاجة ؟ هل من المعقول أن يصل بك البخل لهذا الحد من الخسة والنذالة؟ هل أنت واع لتصرفك.. معقول حبك للمال أنساك معروفي الذي قدمته لك والذي لا يقدر بثمن.. فعلا كما يقولن عنك خسيس ونذل...

صدق المتنبي حين قال:--

"اذا أنت أكرمت الكريم ملكته –

واذا أنت أكرمت اللئيم تمردا"

أيمكن أن تقابل أحساني ومعروفي لك بهذه القباحة ؟

رد علي بقباحة أخس من الأولى وأندى، حيث قال:..

- ذاك كان فضل أخوك علينا وليس فضلك أنت!.. هههههههه، هكذا رد علي بقبح دون حياء- (راد يكحلها عماها)...

لم أستوعب ردة فعله بتاتا، لم أجد أنذل وأقبح من تصرفه في حياتي وفي كتب التاريخ..... كان الأجدى أن يقدر موقف أخي وإحسانه بدل أن يتنكر أحساني له!!! فقلت له بحدة وعصبية، لم يبقى للذوق فرصة التعامل.

- قبح الله وجهك يا ناكر الجميل، الم تتوسل بي لأتصل بأخي من داركم بوجودك أنت؟ هل نسيت اتصالي به حين طلبت منه مساعدتكم؟ آسف عن العمر الذي قضيته معك، أنت مجرد صعلوك..

حينها تركته مندهش من ردة فعلي، لكن بقي جرحه ينزف في ذاكرتي.

*****

استلفت من عزيز 100 دولار دون جهد، وحين عدت لليمن بصحبة زوجتي سكنت في فندق إسطنبول وسط ميدان التحرير، ثم أتصلت بأبو فادي عله وجد لنا سكنا..

- نعم وجدت لك سكن أنت أين الآن؟.
- في فندق إسطنبول في ميدان التحرير.

لم يتأخر سوى دقائق، نقلنا بعجلة تكسي إلى داره في منطقة الحصبة. كان هذا الطيب يعتذر مني خلال الطريق، لأنه لم يجد سكنا، لكنه وعد بسكن في ذات العمارة التي يسكن بها خلال أسبوع.

حينها كان قد أفرغ لنا غرفة الأطفال في داره بشكل مؤقت، قضينا بها ذلك الاسبوع... لن ولن أنسى فضله ما حييت، حيث للإحسان وقع على القلب يصبح مع مرور الزمن آية حب تقرأ في المناسبات، لتجديد تقدير واحترام ذلك الطيب.

في اليوم التالي ذهبت للأستاذ راضي، وشرحت له تفاصيل تغير ظرفي، وطالبته بالمبلغ الذي أودعته عنده، فأستخرج من جيبه 100 دولار كدفعة أولية، بعد ذلك صار يقَطّرَ المبلغ بالقطارة، كل شهر 50 دولار، حينها لامه مدير المدرسة وآخرون وأبو فادي، لعدم مراعاته ظرفي الحرج، حيث المرتبات كانت تدفع لنا كدفعة واحدة في نهاية السنة الدراسية، لكني كنت معتمدا على الورشة في تصريف شؤوني.

ربما كان معذورا في حينه، لكنه طبق نظرية مكيافلي معي.. (الغاية تبرر الوسيلة)، المهم يقضي حوائجه وأن كنت أحترق امامه...

*****

ثالثا : عدنان جهدية النجار

هو أقدم نجار في جلولاء، وأكثرهم خبرة ومهارة على الأطلاق، يكبرني بخمسة عشرة سنة على أقل تقدير، وهو أبن أقدم جار لنا وصديق أخي الأكبر. دارهم مقابل دارنا، تجاورنا لأكثر من عشرين سنة.

عندما كنت صغيرا، كنت أرافق والدتي لدارهم لمشاهدة التلفاز، حيث كانوا الوحيدين الذين يمتلكون تلفازا على مستوى المحلة في الستينات... بعد أن دخلت الجامعة، كانوا قد انتقلوا من دارهم لدار

أخرى، وأنتقل عدنان للعمل في بغداد، ومنذ ذلك اليوم لم أحظى بلقائه.

وأنا أتجول في شوارع صنعاء (عام 1994)، التقيته صدفة في شارع جمال، حيث كان يعمل ديكورا لأحد المحلات. تبادلنا السلام والأحضان بعد تلك القطيعة الطويلة. كان يقف إلى جانبه شابين كرديين من أهالي السليمانية، وهما محمد وسيروان، وعلمت من خلاله أنهما مهندسا ديكور يعملان معا كمجموعة. كان قد أشار إلى مكان عمله الدائم في محل يجاور المحل الذي يعمل له الديكور، ووصف لي محل سكناه في شارع هايل. علما أن شارع هايل هو أطول شوارع في صنعاء، يكاد يحيط صنعاء بنصف دائرة كبيرة على شكل الهلال، يبدأ شمالا من منطقة الحصبة لينتهي جنوبا بشارع حدا.

شاءت الصدفة أن التقيته مرة أخرى، وهذه المرة كان برفقة فتاة أدعى أنها زوجته، كانت امرأة قبيحة الشكل ملطخة وجهها بأصباغ المكياج الصارخ أشبه بغواني الغجر، أو على الأقل هذا ما تراءى لي من أول وهلة رأيتها فيه، بان لي بأنه مستقر بعمله وثباته، ويكسب أموالا جيدة من عمله...

نتيجة الفراغ الكبير الذي نشعر به، دائما ما نراود المقاهي بعد انتهاء الدوام الرسمي أو التجوال في ميدان التحرير والذي يعتبر مركز المدينة وملتقى شوارع صنعاء الرئيسية.

في عصر أحد الأيام، وقبل ساعات الغروب بقليل تفاجأت بشخص يغلق عيني براحة كفيه، كان هذا الشخص هو عدنان، الذي يستطيع أن يلتقيك متى شاء، جلس بجانبي، تجاذبنا الحديث في أمور العراقيين وفكرة الهجرة السائدة إلى أوربا وأستراليا ونيوزلندا -- الخ.

تكررت لقاءاتنا في المقهى، وفي شارع جمال المفعم بالمنتجات والمزدحم بالنساء، أو في باب اليمن المكان الشعبي الذي يروق السياح ارتياده. تهجس به إبليس يتبع خطوتك، أينما أحل أجده أمامي. لم اكن أعلم ما يخطط له ويضمر في داخله، أنه باب مغلق يصعب فتحه، وكل المفاتيح التي وهبني إياها كانت مزيفه.

في آخر لقائي به كان قد التقاني في مقهى التحرير حيث كنت أجالس وحيدا، وإذ به يطل عليَّ من الخلف معانقا كعادته، ثم جلس بجانبي على كرسي شاغر. فقلت له:..

- قلي ماذا تشرب وماهي اخبارك؟
- أي شيء من كرمك، سامحني والله مشغول والشغل لا ينتهي، واليمنيون يتأخرون بدفع الأتعاب حتى وأن أنجزت العمل، لن يسلموك المبلغ كاملا.
- صحيح هذا المأخذ مأخوذ عليهم، طيب لماذا لا تشتغل باستقلالية، أفتح لك ورشة خاصة بك أنت ماهر في عملك ومعروف على مستوى السوق والصنعة.

- أحاول أن أجمع شتات ذاتي، ولكن السيولة المادية لا تكفي، والآن أرجو ان لا تحرجني، هناك فرصة عمل متاحة أمامي فيها ربح عشرون ألف ريال خلال يومين فقط، أحتاج منك أربعة آلاف ريال، على أن أعيدها لك مضاعفة خلال أسبوع، أود شراء بعض الأخشاب لأبدأ العمل لشيخ يمني.

لم أستطع أن أمنع طيبتي من مساعدته على سعيه إلا بالإيجاب، حيث أكن له احتراما جليا، لسنه ولكونه صديق أخي الأكبر. ثم أني لن أنسى حقبة الجيرة التي جمعتنا.

تلك الأحداث وقفت شاخصة أمام عيني، حركت ضميري، جعلتني أمد يد المساعدة له، فأخرجت المبلغ المطلوب من جيبي وسلمته له دون تفكير في الربح. والذي بفضل الله لم يفرغ جيبي يوما قط، حيث بقدر القناعة التي أأمن بها يملئها الله من فضله وفيضه، سلمته المبلغ، ثم عانقني وغادر المكان...

عرف من أين تأكل الكتف، كشيطان مد يده الخفية في جيبي، سلت المبلغ بسحره ثم غرب عن وجهي ولم أعد ألتقيه ثانية قط. غاب في ديجور الظلمة، كفص ملح ذاب في مياه البحر. بعد أن كنت التقيه بتكرار ممل كل يوم، صرت لا أشهد له أثر ابدا ولمدة اربعة أشهر. بحثت عنه في الطرق وأماكن العمل دون جدوى. لطول فترة غيابه استفسرت عنه من الورشة

التـــي بهـــا عليـــه خـــلال لقـــائي الأول بـــه، فقـــال لـــي صـــاحبها اليمني:....

- يـــا أخـــي؛ هـــذا رجـــل نصـــاب، معـــروف علـــى مســـتوى الـــيمن، كيـــف تورطـــت معـــه، هـــذا فاســـد، منحـــل، خمـــار، زانـــي، مطلـــوب للشـــرطة، عليـــه قضـــايا كثيـــرة، لا يســـتقر فـــي مكـــان ثابـــت إطلاقـــا، أنـــه معـــروف بالســـوق باســـم الزئبق.

فـــي الوقـــت الـــذي كنـــت أراه يتســـكع فـــي الشـــوارع باســـتمرار، صـــار لغـــزا لـــيس لـــه حـــل؛ لـــن اشـــهده حتـــى فـــي الخيـــال، تبخـــر مـــن عـــالم الأنـــس والجـــن والوجـــود نهائيـــا، كأنـــه كـــان جنيـــا متقمصـــا جســـد عـــدنان فـــأختفى بـــه، فعـــلا بأفعالـــه الشـــريرة كـــان يـــتقمص جسد الأبرياء، ليعيش على أجسادهم كالبكتريا الضارة.

يئســـت فـــي البحـــث عنـــه حتـــى أنـــي تناســـيته، ولكـــن شـــاءت الصـــدفة أن تلعـــب دورهـــا فـــي لقـــاء الشـــابين طيبـــي الـــذكر محمـــد وســـيروان فـــي شـــارع جمـــال وذلـــك بعـــد أربعـــة اشـــهر مـــن اختفـــاء عـــدنان. سلمت عليهما؛....

- السلام عليكم؛ كيف حالك يا سيروان، هل تذكرتني؟
- نعم أذكرك -- الحمد لله-- اعذرني فقط نسيت أسمك.
- ياسر..... ثم سألته:..
- بالله هل تعرف أين يعمل عدنان النجار؟

أجابني على الفور دون نقاش وتفكير...

- هل أخذ منك نقودا؟....
- نعم أستلف مني 4000 ريال قبل أربعة أشهر، قال أنه بحاجة لمبلغ لشراء لوازم العمل، وسأعيد لك المبلغ خلال يومين، لكنه منذ ذلك اليوم أختفى ولم يراجعني.
- هو ليس له محلٍ ثابتٍ، هذا نصاب ومحتال، رغم أنه من أمهر النجارين في صنعاء.
- كان كل يوم يلتقيني، لكن منذ أن سلفته المبلغ أختفى، كأنه هجر صنعاء .
- لالا أين يذهب أنه موجود هنا، أتبعني، أنه يتواجد في مقهى اليمن في شارع هايل .

تبعته ؛ خلال الطريق شرح لي عن أخلاقه المنحلة، وعن حالات النصب التي يمارسها مع كل الناس، ومع أقرب الناس له، قال:....

- أنه مريض نفسيا، بيده يمكن أن ينتج ذهبا، هو أمهر رجل رأيته في حياتي، سريع العمل دقيق جدا، مخه يتركب من خليط من العناصر الذكية، من نظرة واحدة يحسب الأمور بدقة متناهية التي نحن نحسبها بالمقياس والمسطرة-- لكنه في المقابل وضيع، خسيس، ضائع، منحل، تافه، ذليل، يعتصر الفساد كما يشربه.

وأنا في المقابل شرحت لهم عمق العلاقة والجيرة التي تجمعنا، إضافة إلى كونه صديق أخي الأكبر. كان يستمع لي ويهز رأسه أسفا على تصرفاته الخسيسة.

بعد أن وصلنا المقهى؛ سأل صاحبها عنه أن كان موجودا؟.. أجابه بالنفي قائلا: أنه مختفي منذ يومين.

قال لي محمد

- أنه خمار، قمار، فاسد، يصرف كل ما يحصل عليه على الخمر والزنا.
- في مرة شاهدته مع فتاة عراقية، وكأنها غجرية، عرفني بها على أنها زوجته.
- أنه كذاب! مخادع، هذه قحبته جاء بها من بغداد.. هذا الرجل لو يعرف يمسك يده لكان أغنى شخص في اليمن. يمكنه أن يكون مليونيرا خلال سنة واحدة إذا أحسن تدبير سلوكه.. أنه أمهر النجارين على الإطلاق، الكل يبحث عنه بما يخص العمل، يسمونه الزئبق لخفة يده وسرعة عمله ودقته وإتقانه، تصور رغم نحن مهندسان ونعمل في هذا المجال منذ سنوات، إلا أنه يتفوق علينا في الخبرة والدقة والإتقان والإمكانية، أنه رهيب جدا في مجال النجارة.

قال سيروان :...

- لا تهتم نحن نعمل معا، تحت يدي عمل بـ مئة الف ريال يمني، أقسم بالله خلال هذا الأسبوع أن لم يعيد لك المبلغ بنفسه، لن أرسي عليه هذه المقاولة مهما حصل، لا تهتم، روحه محصورة بين أيدينا.

فعلا كما قال سيروان طيب ذكر، بعد يومين من هذا اللقاء كنت جالس في ذات المقهى، وإذ به يجيئ برفقة سيروان ومحمد ليسلمني المبلغ معتذرا، ناكسا رأسه، عرفانا بفضلي أمام خسته.

قلت له...

- سأغلق فمي أكراما واحتراما للأخوين سيروان ومحمد، لكني لا أريد أن أرى وجهك ثانية.

قلت له ذلك ولم أزد، فيما هو بقيَّ صامتا لم ينبس بشفة. حينها شكرت سيروان ومحمد، وودعتهم.

ما يغيض في الأمر النصب على القريب والصديق، بحيث يطفئ كل شذرات التأريخ برمشة عين، فالأنسان من هذا النوع مهووس بالغباء.. لأنه بعمله الخسيس سوف يمحي نفسه من ثنايا السنين، ولن يذكر إلا بالعنة.... شكرا لهؤلاء الشلة الذين علموني دروسا ثمينة في الحياة، وآخرون نلت منهم الويل..

أبت النذالة أن تفارق أهلها - بها ولدوا وبها يشيخوا.

بقايا الكأس

فيما مضى كانت الدعارة ككار منتشر في مراكز معينة من أرجاء البلد، على قلتها كانت تفي بالغرض المبتغى للعازب، هذه الأماكن مرخصة من قبل الدولة، للحفظ على نظافة المدن من التشوه والقبح، معلوم إذا ما وضعت الخلايا الخبيثة بجوار النظيفة السليمة؛ ستنقل إليها ماهيتها. فالنفس أمارة بالسوء، ومعظم اللاتي يعملن في الدعارة هنَّ من أصول غجرية، وقلة من اللاتي انحرفن وسلكنَّ طريق الرذيلة والزنا.

كان قد هفا بي الشوق لأوكارهن، لأستمتع بجسد انثى، لأتلمس الأنوثة عن قرب وحرية، حينها كنت عطش لإرواء ذاتي، للكشف عن ذكوريتي. حينها كنت لازلت في بداية سن البلوغ، دخلت دارا لا على التعيين في منطقة الميدان، قادتني الصدفة، كنت حينها اتبع قافلة من المهزومين، المهمومين، الغائرين والجانحين، بيوتات بالية آيلة للسقوط، خربة، مهجورة، استغلها عدد من القادية في جمع مجموعات من النسوة البغاة في تلك الدور لتسليك عملهم. عندها كانت لي رغبة جامحة بممارسة التجربة مع أي مومس في تلك الأوكار العفنة لأطفئ نار الشغف في اعماقي.

ولجت في فرع من الفروع خلف بعض الوجوه البائسة التي ترتاد هذه الأماكن العفنة، انحدرت مع تلك الوجوه العابسة، التائهة، الضائعة، الغائرة في شجون ذكوريتهم، المفلسة من نعم الله وهي تروج في تلك الأمكنة كالدبيب، تبحث عن غواها ومناها في تلك

الأماكن الموبوءة بعيدا عن الفضائح، لتطفئ نار الغريزة المتأججة في دواخلها بنفاضة عاهرة والتي أكثر بؤسا وشجنا منه. تبحث عن الذات التائهة والمنحرفة بين أجساد ذابلة، مصفرة، شبعت آثاما ومهانة وانحطاطا.

كنت أحد هؤلاء الدبيب اتبع العارفين وذوات الخبرة، أبحث عن لغز الأنثى ولون السحر المغروس في منابت الشهوة، عن التاج الذي به أتوج به ذكوريتي بشكل من أشكال الكرنفال والوله قبل أن أدخل فردوس الحياة، كنت أتبع اللحظة بشغف وجنون، أن أبرد الرغبة الملتاعة في جوفي، أن أعين الأنا المريضة، متبعا دروب الغريزة المحتقنة في أعماقي كالأعمى، لأروي ظمأ النفس العطشة للجنس، تلك كانت أول تجربة جزلت بها إرهاصاتي وقومت بها رشدي..

في الحقيقة كنت أبحث عن بلسم صبر أنعم به خشونة ذكوريتي، أزيل طفح الإرهاصات الشبابية المتأججة في أنفاسي، أبحث عن صيدلية إغواء ودواء في جسد فاتنة. وددت أن أنتشل غايتي المرهقة والمريضة من عجز كنت أشك به قائم في جسدي، أو بالأحرى وددت أن أبحث عن ذاتي بين تلك الأفخاذ المكتنزة، لزرع ثقة في النفس المتزعزعة بقدرات رجوليتها، لكشط عث الخجل عن غشاء النفس الملتحفة بالعفة، حتى أني كنت فيما مضى أخجل من أن أستميح النظر إلى وجه فتاة تعجبني.

وقفت في مدخل أحد الأبواب المفتوحة على مصراعيها، حيث يقفن في فنار البيت مجموعة مومسات بين خمسة إلى سبعة فتيات شبه عاريات، تتراوح أعمارهن بين العشرين وخمسة وثلاثين سنة من

العمر، متراصفات في نسق أمام الداخلين للدار، كنت حينها أبن الثانية والعشرين من العمر، كل منهنَّ تود نثر ودها على قدمي، تحاول استمالتي لشاطئ رقتها المضطرب. تحاول أن تسرق جوهرتي بعملية أغرائي بمفاتن جسدها، لقد عرضنَّ عليَّ بضاعتهنَّ دون خجل...

كنَّ خليطا من البغاة يؤممن تلك الاوكار من عاملات وموظفات وفنانات وغجريات...الخ اجتمعن على الخسة، يبتغين كار البِغاء من أجل المادة والمتعة.

على أية حال اجتذبتني أحدى الفاتنات من بين مجموعة، كانت امرأة ذا بشرة رقيقة مشبعة بسمرة شفيفة، ناعمة الملامح، خمرية اللون، رشيقة القوام، متوسطة الطول، واسعة العينين، كرزية الشفاه... أخترتها من بين المجموعة للجاذبية التي وجدتها في سمرة بشرتها ونعومة ملامح وجهها. كانت هادئة، غارقة بابتسامة لطيفة، رمتني بسنارة عينيها فتعلقت في حشاشة قلبي، تعلقت الروح بخيط واهٍ من سحر مدفون في وجهها البشوش، هجست بها أكثرهن رواقا وهيجانا وعذوبة، هجست بها كجمرة ملظة لامست عصف ريحي، حينها سال الرضاب على طراوة الشفاه، مسدت البشرة بالنضارة، ماجت في العين جاذبية. حين مددت يدي أليها اخذت بيدي كالضرير، قادتني لغرفتها جانبية إلى حيث فرشة مطروحة على الارض، حاضنة خصري وكأني رفيقها وعشيقها...

حين لمست ضياء وجهها براحة يدي، أتقدت أناملي من شحنة الدماء المتقدة بفتنتها، الهبت أشواقي بسحر تلك الوجنتين، طفقت

عاطفتي تخفق، ارتعشت أوصالي، وكانت قد همتْ بي قبل أن أهم بها، فالتصق الجسد بالجسد كتطابق الألواح على بعضها، تماهت الروح بالروح، خار الجسد تحت وقع الدفء المشع من ثناياها، ذاب في أنفاسها كفص ملح لج في بحر أنوثتها الطامي..

قبلتها من خدها الناصع، شعرت بخدر قد لاح حراشف الشفاه، كأنها تكهربت بوميض كهرب بريق سمرتها، بحذق من ألق نضارتها ونعومتها، سرى وهج الشغف كالبرق في ثنايا الشهوة، انتبرت عواطفي كشمس في سماء النشوة، بانت تشع وجدا وشوقا وحنينا ومودة في جسدي، توهجت شمعة ذكوريتي بتوهج زهرة أنوثتها على طاولة الرغبة المشاعة في أعماقنا.

نضت ثوبها المخملي مع نض ثيابي، كانت ترتدي جلابية شفافة صيفية صفراء اللون، كشفت عن بقاع العشب وصفاء المعدن التي تغويها، بان جسدها المتناسق اللطيف تحت الضوء الخافت ككهرب مضاء لصحراوية المفاتن، أرتمت على الفرشة كقطعة أثرية ساكنة أمام هياج الريح، طربتها موجات اللطف حين هامست الشغف المدفون في أعماقي، داعبتُ مواضع الشوق والحنين، عبثتْ بصور عواطفي كأفعى تلوع بتموج جسدها. وجدت بين الحلمتين الورديتين مسرى لأنفاسي، رميت عليها شبكة رغباتي، بت أشم عبير رواقها، أداعب بأناملي ثديها، فأشتد بهما الألق، أهتز غصنها مع عصفي، شدت جسدي إلى جسدها.

لم تكن بدينة، ولم تكن نحيفة، لها صدر متدفق بحيوية، وصرة ضامرة في مساحة البطن تشبه دوار أمواج متعاكسة، كقمر يتهادى

وسط سحب سمحاقيه تزيد الجسد فتنة وبهاء.. كان يطغي على خصرها وبطنها ترهلات بسيط، أثر حمل قديم شهد عليها، أضحت الخطوط البيضاء راكدة تحت محيط الصرة. فيما تهجس بـ ثأدة الفخذين مكتنزتين مشبعة بالنشوة، مسحوبين بدقة من الكاحل لمحيط الأرداف بتناسق مبهر.

دخلت لوكرها أشبه بالأسد المفترس، راغبا أن ألوك مبتغاي في صحنها بعطش المراهقين، حيث كلما لامست طرفا منها؛ زدت هياما بها. بمفاتنها حثت أعضاء جسدي على الاتقاد والاندفاع بمجانة نحو لآلئ مفاتنها، غزوتها بطاقة تفوق القدرات المكنونة في جسدي....

كما أن لرقة وعذوبة لسانها، وهوس جنونها بي، ولسعة الشهوة الداكنة، المستميتة، الماجنة التي بها واجهت غريزتي وأوقدت شمعة ذكوريتي؛ كان لها الفعل الحسن في تأجيج الشهوة في داخلي. رغبتها القوية بي حملتها على مداعبة موضع الشهوة في جسدي، فهي لا تقل عني شغفا ورغبة أطلاقا، وجدتها كالفرس الجامحة متأنقة برشاقة حركاتها في ميدان وجدي، تحركت بلهفة مجنونة حول الرغبة الجامحة في أعماقي، كهربتُ بشرتي، لسعتني، أفرغت سمومها في جسدي، فلذعتُ بوهجها المصطلي.

سايرتها، دخلت معها لعالم الغيبوبة؛ حتى ساح ريقي على ثنايا الجسد في ظل صمت تسيد الأجواء، ترطبت شفاهي ومحياي وفكري وذاتي بـ ريق عذوبتها، حملت نفسي على فك عقدة الشبق الغائرة بين مناكب الجسدين.

ألجأت الرغبة في صرة الشوق؛ حتى انفلجت نوافذ الشبق، حتى تشبعت ثناياها بزلال عصفي وإرهاصاتي، حتى تراخت بقايانا وانفلتت جوارحنا ليفترش بساط الصمت أمام أعجاز فيضي والنشوة الدائرة في بدني، ذلك ما طغى على عالمنا لبرهة زمن بعد أن التصقت هواجسنا وتطابقت أعضائنا واهوائنا على بعضها كتطابق الاشياء.

فبعد أن قطعنا شوطنا بنجاح، بعد أن عبرنا الحواجز والعوائق التي واجهتنا ونحن نجهد ونجتهد في تذليل العوائق النفسية بتعاون منقطع النظير، للارتقاء بالشبق لدرجة الوله، تشبعت مناهلنا ورغباتنا المكبوتة، حتى توجت ذكوريتي بتاج زهرتها... لقد وجدتها قطة أليفة، لم تبخل بعطفها ودلالها بكرنفال احتفالنا..

معروف عليهنَّ أنهنَّ منزوعات العاطفة والرغبة، نتيجة التكرار والروتين التي يرافقهنَّ في كارهنَّ، لذا تفقد الشهوة واللذة والرغبة الحقيقية، نتيجة روتين الممارسة، فهنَّ لا يشعرن بالجنس إلا ما ندر، أنما غايتها المادة والابتزاز و البزنس ...

وقبل أن أودعها كنت قد سألت وهي لازالت مغمورة بسيل عواطفي، نائمة تحت جسدي مفروشة الفخذين تحت رغباتي، مغشي بأنوثتها في ملحمة قل نظيرها، فقلت لها مستفسرا:....

- أرى على بطنك خطوط حمل، هل أنت متزوجة ؟

- نعم! أنا أم لطفلين، وفي نهاية كل شهر أشكي لزوجي فاقتي ومتطلباتي، حتى استولي على نصف مرتبه. أنه مسكين لا يُمانع في

إرضائي، ثم أتردد إلى هنا بين آونة وأخرى، لأجمع ما أجمع من مال، فالمرأة لا تشبعها خزائن الدنيا.

- هل تحبين زوجك؟

- أنه أبو أطفالي، وهو طيب.

- وما ذنب زوجك؟ -- أليس من وضع ثقته بك؟

- بلا وهو يظن كذلك، وللعلم أنا موظفة!... لا يكفيني مرتبي، وما أأخذه من زوجي وما أحصل عليه هنا، كل ذلك لا يسد طموحي ورغباتي، فهنا أجد ملجأ لملذاتي الجنسية والمادية، النقود تغريني.

بقيت صورة تلك المرأة الزانية معلقة بجدار ذهني، جعلتني أعمم سلوكها على كل النساء، ذلك الذي جعلني أكره الزواج لفترة طويلة..... بعد فترة شهر من تلك الممارسة، بدأت تظهر تقرحات على قلف وجلد قضيبي، فيها حرقة وألم، أيقنت بأنه عقاب رباني على جريرتي.

غيرة القواد

لم يكن لـ داودٍ دخلٍ في اختيار مهنته، ولد وهو مكبل بقيد الخسة وسواد البخت والمصير، أرتدى ثوب العار دون إرادة منه، فصار قدره ديدن سلوكه في محور حياته. لم يتمكن من تغييره جلده كما يفعل الثعبان، سقط حظه العاثر كحجر صوان في بركة الرذيلة، ليسقط بذاته في هوة الفساد والخطيئة، بذا تجرد من هبات الدنيا الجليلة.

ولد على الفطرة وفي فمه ملعقة الفساد يلوك بها، ليكون بذاته طُعم لفم الزمن، متحملا قسوته وشقاءه. سقط وسقط معه بختة قبل أن يولد، قبل أن يدرك الدنيا ويكتشف ما فيها من نتانة وعقاب لذاته.

داود ذلك الشخص المسالم الذي قمصته الذنوب وهو بريء منها، حاصرته الظروف فألبسته تاج الخسة وأسمال الثياب، نسبت إليه الآثام دون أن يختارها، كان خلال ظرفه مسيرا، جار عليه الزمن فألبسه قدره، بل أنه ولد وحبل العار يقمط جسده.

لم يتعرف على أبوه، كان قد ولد كطفل غير شرعي في دور المباغي، في بيت تفوح منه رائحة الدعارة، لذلك التصقت به صفة الرذيلة دون أن يختارها. أمه كانت امرأة مومس، مارست البغاء مع مجموعة رجال في أوكار الدعارة، فحبلت به، ثم ولدته في ذات الملجأ دون أن تكون له صفة الاختيار، دون أن يعرف هوية أبوه..

كبرت وكبر معها كارها، تدرجت بالمناصب لتتحول من مومس لقوادة. تعلم مهنتها التي لا يعرف غيرها، شب في ظلها، ذاع صيته، عرف بين الملأ بداود القواد.

كانت أمه قد اشتهرت على مستوى الزعامة في منطقة الميدان وسط الخمسينات، جمعت تحت ظلها شلة من العاهرات في مبغى خاص بها، وحين ماتت ورث عنها كارها واستطرد. بحيث جنح في شهرته لمجالات أوسع، ارتبطت علاقاته بسياسيين والتجار وغارمين ومنحرفين الذين ودوا إخفاء هوياتهم في مراودة أوساط الرذيلة، خوفا على السمعة والوجاهة والمكانة الاجتماعية..

كان يوفق بين زبائنه والعاهرات، في الوقت الذي به يكون قد أمن موقعه وقوته ونفوذه بين تلك الأوساط، بحيث صارت لا تقف أمام رغباته معجزة إلا وحققها، حتى تمكن من السيطرة على الكثير من أصحاب النفوذ والقرار.

لقد ولد بين تلك الأزقة المشبعة بالرطوبة، كبر وهو أبن كار فرض عليه منذ صغره، عَرف البحبحة والبذخ والفسق والسكر وزيغ النساء، تشبعت أفكاره بالموبقات، أدمن على المسكرات، مارس الرذيلة قبل أقرانه، حتى مسخته الظروف عن قيم ومبادئ المجتمع.

تلك الدوامة كشطت عن جبينه صفة الغيرة، وعن فكره عزته وكرامته، حتى تناس قدره وذاته منذ صغره. عاش وحيدا في زنقته، لا يعرف من الدين سوى الاسم، يكاد لم ينتبه على منارات المساجد المتناثرة من حوله، ولم ينتبه صوت الآذان قط. ربما لا يفقه من

ألوان الحياة غير اللون الأسود الذي انغمس فيه، ولا طريق سوى سبيل مظلل سلبه من المجتمع.

عاش شبابه كالأعمى؛ لا صديق يشكمه، لا حبيب يقدره، لا رفيق يشعره بإنسانيته، ولا خيار له غير عصاه التي يهش بها العاهرات. حتى الكلمات والمصطلحات التي يسمعها تكاد تكون غريبة عليه. لا يميز بين معاني الشرف من عدمها، إلا بعد أن تجاوز طفولته وشبابه. لم يكن يفقه للسقوط معنى؛ حتى حنى الشيب رأسه ولحيته. ربما الأسماء كانت لا تعنيه، فهي مجرد كلمات في قاموس اللغة، كلمات عابرة لا تؤثر فيه، لا تحرك زغب مشاعره، لا لها معانٍ في حساباته إلا ما قد رغت.. لذلك تسامت في ذهنه المعاني وامتزجت في نظره الأمور، فاختلطت في ظنه الأشياء، فبات يعيش مرحلة لا يفرق بها بين ألوان الطيف العابرة على ذهنه، حتى تجسدت جميعها بلون واحد داكن في ظنه.

أذكر في أحدى المرات هفا بي الشوق لأزور أوكارهن، كان ذلك قبل الزواج بفترة طويلة... كنت حينها لا أعرف داود بالشكل والصورة. دخلت أحد الأوكار برغبة جامحة، وددت أن أجرب فروسيتي في ميدان الوله. اكتشفت خليطا من العاهرات يؤممن تلك الاوكار الرطبة من عاملات وموظفات وفنانات وغجريات.....الخ.. وقعت عيني على إحداهن أدعت اسمها بثينة، وهو أسم مستعار.

على أية حال فيما بعد اصبحت فنانة مشهورة، كنت سألتها حينها بعد أن مارست الرذيلة معها قائلا؛...

- تبدين من أصول طيبة، ما دعاك إلى هذه الأماكن الضحلة؟

- ما دعاك أنت؟.
- التجربة.
- دعتني الحاجة وحب المادة، زوجي موظف وأنا موظفة، ولي طفلة بعمر أربعة سنوات تركتها في الروضة، رغم ذلك لا تكفيني مصاريفي.

وكأنَّ المجالات الواسعة أوصدت أبوابها، تركتها فريسة الخوف والظن من الغد الآتي... كنت خلالها لم أزل فتا يافعا في مقتبل العمر...لم استطع أن استوعب حقيقة انحرافها، لما تملكه من فتنة وجه وقوام رشيق، بقيت صورتها معلقة على جدار الذهن، جعلتني أعمم سلوكها على كل النساء.

كيف السبيل إلى إبعاد امرأة عن مسارها المنحرف، لم أكن أعي الحياة بشكلها الصحيح، لم أفكر حينها بأنها كانت ناقصة عقل ودين وشرف. كيف جنحت إلى طريق الخسة والنذالة بحجج واهية وهي تملك مواصفات سيدة في المجتمع كملكات الجمال، لا بل أنها خانت الذات التي خلقها الله ومزقت عَقْدِ الزواج الذي ابرمته مع زوجها وطفلتها لتكن صالحة في المجتمع.

صورة بائسة تعلقت بذهني، جعلتني أعمم الحالة على كل النساء، حتى صرت أراقب أمي المسكينة، بت أشك ببنت الجار التي أعشقها. خلت أتخيل جسدها وأنا مقيد بِهَمْ الأسر الذي نال من عمري البهيج أجمل سنواته. أتخيل بشرتها البضة، وما تحمل من سحر المفاتن. كثيرا ما كانت تراود أطيافي في المنام، تشدني إلى صدرها النابض

لأمتص رحيق مفاتنها. كثيرا ما فرضت عليَّ حالة الاستمناء في خلوتي، حين يشتط الذهن لحلاوة عالمها.

لقد تركت تلك المومس خارطة الرذيلة في ذهني، جعلتني أتخيلها راقدة إلى جواري، أسمع صدى صوتها يتردد على مسامعي، بل صارت كلماتها كأقراط تجلجل ذاكرتي، أحيانا أهجس بطيفها ينبثق من وسادتي.

كما أتذكر ردة فعل تلك العفيفة بوجه المدعو عماد كشخه، حين غال في معاكستها على الرغم من أنها إمرأة متزوجة، حاول مرارا كسب ودها دون جدوى. فما كان منها إلا أن تنفجر بوجهه، لتزجره على فظاعة الخسة والنذالة التي تميز بها أمام الملأ، رمته بحجر الفضيحة، عقصت حيائه بقدم شرفها..

حصل ذلك حين ود مساومتها على كرامتها وعفتها ودينها، فلم تتنازل عن وسام شرفها الرفيع، انفجرت بوجهه كـ بالونة غضب، كسرت شوكة عجرفته واختياله وتغطرسه.. من يومها لم يعد ينظر إليها إلا وفي عينيه نظرة انكسار وندم.

بعد أن عدت من قبضة الأسر بعد أن أنتهت الحرب مع إيران، ذلك بعد أن قضيت خمس سنوات تحت سوط البؤس والتعذيب، لم أكن أدرك حجم الخسارة التي ضاعت من عمري، رجعت وفي كاهلي هم الانسجام بالمجتمع، بعد تلك القطيعة الطويلة من الهم والغم، حينها حاصرتني الحياة بعقدها من كل جانب، وبالذات في تدبير المعيشة وكفاف الرزق وعقد النكاح من فتاة أحلامي. فالاستقرار النفس من ضروريات كل إنسان. لكني حين عدت،

وجدت الأبواب مؤصدة أمامي في ظل حصار وعناء، احتجتُ لمفاتيح صبرٍ وأناة وقدرة مالية فائقة لا أملكها.

كنت حينها قد تجاوزت الثلاثين من العمر ولم أحقق أهداف شبابي، لم أرسم وجه الطفولة على جدران قلبي، لم ازرع ثمرة في بستان عمري، أيامٌ مرة، عجزت بها عن بناء حياتي ومراعاة رغباتي، بسبب هروبي الدائم من واقعي إلى وهدت الذاكرة، إلى كلمات تلك المومس التي حشرتني بين فقري وديني وبين مسألة الخيانة.

لكن الله لا ينسى عبده إطلاقا، كنت مؤمنا بالقدر وتغير مسار الحياة، اقتنعت أخيرا بزوجة عفيفة، ساعدني أبوها على اقتناء سيارة أجرة تكسي أرتزق منها، صرت أعمل بها في شوارع بغداد الداخلية ليلا ونهارا لأدبر لقمة العيش، لألتحق بركب الأيام التي خسرتها، لأمحي جزء من ما رسمته تلك العاهرة في الذاكرة.

صرت أعود مرهقا بعد كل مساء وأنا أعاني كثرة اللف والدوران في الأزقة والشوارع باحثا عن صوت الرزق بين عيون الناس، أمد يد الفاقة إلى جوف الرغبة، فأقطع كسرة خبز من اليقين بكماشة الصبر، لتنتشي أوصالي اليوم كله.

في يوم ما جمعت مبلغا جيدا يكفي قوتنا مدة أسبوع من الرغد، وضعته بين يدي زوجتي، ادركتْ بفراستها رائحة الخبز تفوح من جعبتي، تهلل وجهها فرحا، قبلتني من جبيني الملتاع بالجهد والكدر. انفرجت أساريرها كما انفرجت أساريري، انتزعت همومي من على متني وأنا لازلت بمحراب البيت، شعرت بعفتها وكرامتها متوردتان

في وجنتيها، مبتهجتان بعينيها، جذلة بسلامتي ورزقي، احتضنتني بملأة عاطفتها الجياشة، لوت قامة الشك المريب المتصدأ في ذهني.

الفرحة ملئت قلبي، يوم بعد يوم صرت أغرم بها، على الرغم من أنها زوجتي، أضحى الجمال يأخذ منحٍ آخرٍ، أكثر إشراقا من فتنة الوجه والجسد، صرت أنغمس بجمال الروح والطيبة، بالنكتة واللطافة والذوق واللسان الشفاف.

ومع ذلك بقيت نغصة الشك التي زرعتها تلك الغانية تغز الفؤاد بنكتها من حين لآخر، لم أستطع أن أمحي صورة العاهرة بثينة وكلماتها المسمومة من الذاكرة بشكل نهائي، تلك التي جعلتني أسيء الظن بكل النساء.

وفي أحد أيام الصيف القائظ، كنت أتنقل بعجلة التكسي بين باب المعظم وباب الشرجي، حينها أوقفني رجل في العقد الخامس من العمر، طالبا أن أوصله لمنطقة باب الشرقي، كانت الساعة تقارب الثانية من بعد الظهر من أيام شهر آب المستعرة، جلس إلى جانبي في صدر العجلة وبين أصابع يده يعتصر سيجارة يمج بدخانها بين الفينة والفينة، مما زاد من غل الحر ونقص الأوكسجين في العجلة.

عيناه تبحلقان في وجهي، لم أنبس بشفة، ولم ينبس بشفة، مضيت في مسلك الطريق بهدوء تام... في وسط الطريق شاهدت فتاتين يافعتين تؤشرانَّ لي بتوسل لأقللهما لمنطقة باب الشرقي، كان العرق يتصبب من وجوههنَ البراقة تحت لهب أشعة شمس لافحة. كانت لي رغبة شديدة بحملهن معي، لكن الرجل أبا أن أقلهما، كان مصرا أن يدفع أجرة العجلة كاملة لي على أن لا أقلهما.. قال لي برجاء:...

- أرجوك لا تقف ولا تضيع وقتي، سأعوضك عن أجرة التكسي كاملة..

أصغيت له، بقيت أأنب ضميري، لأني أذعنت له، ولم أذعن للشمس المحرقة، ولا لرحمة الله، رضختُ لطلبه كونه له الأحقية في اختيار من يركب العجلة معه طالما هو أول من أستأجرها، قرر دفع كامل الأجرة، لذا كان من حقه أن يمانع في صعود آخرين إلى جانبه..

هكذا مضيت بسراط مستقيم لم أعر أهمية لأحد خلال مسافة الطريق والتي هي بحدود 2 كيلومتر. لكن هذه المنطقة هي أشد مناطق بغداد زحاما، حيث شارع الرشيد وشارع الجمهورية يختنقان بالمارة وبتدفق عجلات هائلة لاعتبارات كثيرة، ولاحتوائها على مراكز اسواق تجارية ضخمة كأسواق الشورجة وسط بغداد، المكتظة بالزبائن من كافة أنحاء العراق لغرض التجارة.

على أية حال وصلنا بعد جهد شاق، قطعنا المسافة المزدحمة، وقبل أن ينزل الرجل ويدفع لي أجرة التكسي. استوقفته وقلت له برجاء.

- بالله يا عم أجبني! لمَ رفضت صعود الفتاتين وهن يستعرنَّ تحت سطوة الشمس الشديدة ؟
- يا هذا.. ألا تعرفني من أنا!!!
- آسف يا عم، كأني لم أراك من قبل، عذرا منك.... أنا سائق تكسي جديد.
- أنا...أنا داوود القواد، أنا أبن هذه المنطقة ومعروف فيها، بل أجزم أكاد أعرف كل عاهرات المنطقة. ممكن أن تسميني مختار عاهرات بغداد، لن أخجل من مهنتي كوني تربيت في

أحضانها منذ الصغر، لا أعرف كارا غيره، لذا أصبحت الخبرة مترسخة في ذهني تماما. أعرف كيفية التعامل معهنَّ واقبض من الآخرين بحرفية، لكنْ صدقني أنها مهنة وسخة، قذرة وحقيرة، تجرعت سمها ومرها على مضض، جاريتها العمر كله مغصوبا، كان القدر قد سبقني فرماني بأحضانها..

أجزم لك بأن تلكا الفتاتين منظرهن لا يدل على أنهن من العاهرات، أراهنَّ على أنهن بنات أناس محترمات، أراهنَّ على عفتهن وشرفهن، فليس كل طير يأكل لحمه، بعض الطيور لحومها مر.

هكذا علمتني التجارب وعلمني الزمن، أعطاني خبرة وبصيرة في هذا الشأن-- لذا لم أرد أن يراهنَّ أحدا ما من الناس العامة وهن جالسات بقربي، فينظر إليهنَّ نظرة دونية ناقصة، فيتوسخن بقذارتي. يا عزيزي الشرف غال وعزيز جدا، لن يشعر بقيمته إلا من أفتقده.

- أشكرك على صراحتك يا عم، لقد انتشلتني من هم أكل مخي، لم أكن أعرف للقواد غيرة على بنات الناس، لذا على الرغم من دائنة عملك هذا الذي تشبثت به أو تشبث بك، من غير أن تكون لك إرادة، أنما جعلتني أكن لك احتراما جليا تستحقه لشهامتك، كأنك أزحت بقايا شوائب علقت في ذهني وقلبي منذ زمن بعيد..... فـ والله لن أأخذ منك أجرة التكسي، لقد أغنيتني، ما تعلمته منك زادني راحة وسكينة، شكرا لك ولصراحتك.
- يا بني أنا لم أختر مهنتي، وهذه المهنة لم تدع لي فرصة العيش بكرامة ونزاهة كباقي الخلق...لم أكن أفهم سر الحياة،

أو أهتم بها كما يجب إلا بعد أن غزى الشيب رأسي. لا تقيم كل النساء بمنظار واحد، فالنساء التي بمعيتي كلهن ناقصات عقل ودين، ليس لهن دراية كافية بمعنى الشرف.

حينها تركته وفي قلبي شعلة نصر وأمان تضيء سبيلي، مضيت أحفر جوف الزمن، أبحث عن صور العزة والكرامة بشرف الرزق، ففي ذاك اليوم ختمت على أوراق شرف زوجتي الغالية، حذفت خطوط الشك نهائيا من ذهني وأطره، نسيت ما أملته على فكري تلك الغانية. بل بصم القواد داوود على عفة زوجتي والنساء دون أن يعرفهن، بذلك محيت وللأبد؛ صورة تلك الزانية بثينة.

كما أدركت بيقين- بأنَّ القواد أشرف من بعض سياسي البلد الذين يتاجرون بأعراض وشرف العفيفات من النساء لأغراض أمنية وشخصية وسياسية.

فلم ينطق المتنبي (رحمه الله) إلا درر...

ذلَّ من يغبط الذليل بعيش ---- رب عيش أخف منه الحمامُ

من يهن يسهل الهوان عليه ------- ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

البصمة

أستفاق من نومه على هاجس حسه المرهف، المليء بالرقة والإحساس، والمبطن بمشاعر جياشة تجاه دينه وقومه وناسه، حس شفاف تراءى للجميع بنعومة ملمسه الحريري تجاه بلده والبلد الذي هاجر إليه.

لم يكن من المتسولين والعابثين ولا من المساكين والغابرين المغرر بهم من الذين أغواهم السبيل والطمع، كان إنسانا بسيطا يملأ قلبه شغاف الحب والعمل، من الذين عمدوا بالأيمان والسؤدد..

كان قد دفعه ظرف بلده القسري نحو مبتغاه، بحثا عن وجهة أمان يستقر بها، خوفا على نفسه وأطفاله من بطش الزمن ومن غل الغادرين. خوفا أن تطمس هويته تحت أقدام العصاة والغزاة والخونة المتنفذين. تلك التي ود العدو سحق الأبرياء بحادلة الفكر الرجعي وأتراس العقائد الدنيوية، بعيدا عن جذر العلاقة بالتاريخ والوطن.

استفاق هاجسه على ربتٍ حسه المرهف لجوارحه كربت الودق، دكت مشاعره بندى الود ورهافَ الحلم، أهتز ظنه في أعماقه، تساقطت أوراق الكسل من على متنه. غدى التناغم فطري بين ثنايا الصمت والحلم المتقد. راغت رغبة جياشة بفيض عزمه وإصراره على رفد تلك المشاعر الجياشة بيقين من خيوط الشمس، تلك التي أبت أن تركد قلقة، قبل أن تستكين تلك الأحلام في أماكنها.

صار يتساءل مع نفسه ويجيب ذاته، وهو يدور في دوامة صراع فكري شغل باله في ذلك الفراغ المطلق.

يا ترى؛ لِمَ لا نثبت لهؤلاء الأنجاس من الغزاة بأننا أكثر منهم عمقا وأفضل إنسانية وحضارة. هؤلاء الذين شوهوا صورنا كمسلمين وكعرب بين شتى الدول وبشتى من الإعلام المزيف. لِمَ لا نعكس الصور الحقيقية التي تمثلنا، بحيث كلٌ منا يعمل من موقعه وحسب إمكاناته، يجب أن نقاوم همجية الغزاة من حيث أن نكون في واجهة التحدي بالممكن والمستطاع. نحن هنا كمهاجرين وكأغلبية يمكننا مواجهة أعدائنا من موقعنا بعمل يظهر حقيقتنا، يمكننا تغيير نظرة المجتمع إلينا بتقديم عمل جدي يعكس ثقافتنا، معنوي كان أو مادي، يمثل حقيقة مشاعرنا ويرفع من شأننا، ويعبر عن معدننا الطيب...

أعداءنا خبيثون، دعنا نكشف زيفهم ونواياهم للعالم، بذلك ندمغهم ونزيح هالات الغموض عن عيون الغير، والتي ما عادت تمطر سوى سموم بوجوهنا. دعنا نحرق صور إدعائهم الزائف، حيث دائما ما يكون للحق سطوة على الباطل فيزهقه. نعم صورنا مهزوزة في أعين العالم لقوة الإعْلامِ الغربي أمام ضعف تحركاتنا! هم يتحركون على نطاق دول ومنظمات، لها أجندات وعملاء يؤازر بعضهم البعض، ونحن نتحرك في أزقة الأحلام الضيقة كأفراد منفصلين بعضنا عن البعض، تكاد المقارنة لا تقاس ولا تقرأ، باهتة، ضعيفة، لكنها حية في عيوننا وضمائرنا وقلوبنا.

للحجر شأن وفعل في صنع الأمواج المتعاقبة، إذا ما سقط في جوف بحيرة راكدة، وأكيد للبحيرة ردة فعلٍ اتجاه الحجر الساقط، حيث

تزج بكتل تلك الأمواجٍ الراقصة بين أعين المغرمين بها، دلالة على رفضها لتلك العبثية الماجنة التي أثرت على سكونها.

لسمط الحجر تتحرك الروح في جسد البحيرة، فتخرج عن طور السكون لطور الديناميكية، حين إذ يختلف المنظر عما سبقه، كما تختلف زاوية الرؤيا، ستختلف أبعاد الفكرة عند الناظرين لها وكل حسب موقعه، ستكون أكثر قبولية وجاذبية للمفسرين والمتتبعين لها...

نحن الآن نعيش في عالم لا يعد سوى قرية صغيرة بفضل النت والكومبيوتر والموبايل. علينا أن نستغل هذه الميزة، نصور نشاطاتنا، نبث كل ما نستطيع أن نثبت به أصالتنا وهويتنا، نعبر عن غاياتنا، عن أهدافنا المرحلية والبعيدة، لنوضح المبادئ التي تشربنا من منهلها، لنثبت للعالم أجمع بأن ثيابنا طاهرة، ناصعة البياض، قلوبنا فسحة، محبة، تتصف بالرهافة والرقة، عكس ما يصوره الأعداء في خدعهم وتشويههم لنا.

بالنسبة لنا الموت: هو حالة سكون مطلق، دون أن يفتقد الإنسان جسده وروحه وكيانه، فالموت الحقيقي في نظري؛ هو تجرد المعني من عقله ومشاعره، هو من يدع عقله مجمدا في فريز الخوف والجُبن. حين إذ يمسي خارجا عن دائرة الوحدة المعنية بنا كعرب، كعنصر جماد؛ كالذي " لا يهش ولا ينش " كما يعبر عنه بالمثل الشعبي.

لم تخلق هذه الحياة عبثا لنركن ذواتنا في زاوية الخمول، لننتظر دنو الأجل. يجب أن نتحرك، أن تُحف أقدامنا طرق المسير، ففي الخطوة يكمن الهدف.

في هذه الحياة يكمن سر الوجود الإلهي، بطبيعتنا نحن كبشر نتبع ذلك السر. نستشعر بتجدد الحياة، الكون لا يعرف استقرارا إطلاقا، بأسره يتحرك حول محور، الشمس والكواكب والنجوم تدور في أفلاكها كمجموعات أو مجرات حول قرص الفردوس بحركات لولبية، تعطي خيالا واسعا للناظر على قدرة الخالق وعظمته.

هذا دليل على أننا يجب أن لا نستكين ولا نستسلم، دعنا نعمل عملا يمجدنا في عيون الذين لم نجد منهم سوى فضاء نفس طيبة، وضيافة مرموقة.

جلس صباحا والأفكار تراق في ذهنه، لا يعرف استقرارا تحت وطيئة العواصف الخريفية الهوجاء، صار يدور حول نفسه ذهابا وإيابا، يتفحص الحيطان، يتأمل البحيرة، ينظر من النافذة، علّه يجد شيئا يعينه على جلده، علّه يجد للبصمة بذور تنبت في هذه الأرض، أو تشع كنور في جوف السماء.

صار يسأل نفسه ويجيب.

ماذا عليَّ أن أعمل؟ ماذا يجب أن أصنع؟

كيف أحرك شجرة شائكة عن الطريق دون أن تدمى أناملي؟ العقدة في الشجرة أم في عقلي؟ المسألة تحتاج إلى تمعن، الشجرة ثابتة فهي الأصل، أما العقل فهو المتطفل، لذا عليَّ دراسة محيط الشجرة.

كيف أجعل لهذه البنايات والغابة مزارا تئمه الناس؟ كيف أجعل الموقع يتصف بصفة السياحة؟ ربما الموقع يحتاج لمدينة اللعاب إلكترونية أو ملاهي؟.. لكن ذلك عمل مكلف، لكن يبقى الحلم حاضرا على طاولة الأمد البعيد.

كيف أعطي لهذه البقعة صفة القدسية؟ بحيث تشع بهاء في أعين الناظرين لها، خاصة المنطقة لا تحتاج إلى أبداع فني كبير في رسم ملامحها. فالبحيرة موجودة، والغابة متاخمة، الأشجار الخضرية والنفضيَّة مبثوثة، الشارع موصول. المنظر بديع جدا، السكن والمطعم مهيئ، لا ينقص المكان سوى الومضة الساحرة! سوى سطوع القمر في ليلة الدجى.

ربما ينقص المنطقة حديقة حيوانات صغيرة، تمثل نماذجا من حيوانات البراري التي تعيش في السويد، والتي يصعب مشاهدتها. فلو جمعنا نماذجا حية من الحيوانات البنفسجية والمتوحشة من أيل، ووشق ورنة ودب وأرانب والطيور من بط ووز ونعامة وبجع ولقلق ووز وفلامنكو.وو...الخ. والتي لها موطن هنا، إضافة إلى الطبيعة الساحرة الخلابة، حتما ستكون واجهة سياحية لطيفة تعنى باهتمام من قبل الناس والدولة. وقد تكون الغابة التي بجانب ملعب الكولف موقعا مناسبا لذلك.

لكن هذه العملية تحتاج لإمكانات دولة.. من صيد وأبنية تأوي تلك الحيوانات، وإدارة متخصصة وعمال وموظفين وخدمات، ناهيك عن توفير الغذاء اليومي للحيوانات والتي تكون مكلفة.

لا لا- أنها صعبة التطبيق، دعني أفكر بفكرة معقولة. كل شيء موجود وكامل، لكني أشعر بشيء ينقص المكان، شيء ضائع لا يخطر على البال، أود أن أبحث عن هذا الشيء الساحر الذي ربما سيضفي على المنطقة هوية التميز، أحاول أن أبحث في جوف هذه الجنينة عن تلك الومضة، عن البصمة.

بعد الفطور الصباحي وقف يتأمل أبو عبدو رفيق دربه الطويل، عسى أن يعينه على ولادة الفكرة، فدخل معه في نقاش لم يفضي لشيء، أنما زرع في داخله تحد صريح لمواصلة سعيه. حيث دار الحديث كالآتي:....

- ترى يا أبو عبدو هل لك فكرة ما تنقذني من الصراع الدائر في ذهني، والذي بات يهزمني؟
- ما بك يا أبو وسيم!.. هل جننت؟
- الحقيقة أني أعاني من ولادة فكرة، لكنها أضحت عصية عليَّ.
- هههههههه، راجع مستشفى الولادة.
- لا تكن سخيفا، أنا جاد معك، فكر معي، أبحث معي عن البصمة الضائعة، أود أن أصل إليها دون ان تعينني قدراتي.
- ألمْ تقل أني أعاني من ولادة؟ هههههه. هل لك أن تفهمني...أنا لم أفهم عليك...ألم تجد غيري تتفلسف عليه ؟
- ركز معي... أود أن أجعل من هذا الموقع وجهة سياحية، ما رأيك؟
- بسيطة جدا.. لا يوجد أبسط منها.
- هيا أرفدني يا عبقري، قل لي ماذا جال في فكرك المجنون؟

- ممكن تحوير شكل البحيرة الطولي لشكل دائري.. ثم نأتي بجبل مخروطي نثبته في وسطها.
- قلت لك لا تكن سخيفا، فكر معي في حل يسعفني، أنا لست فاض لترهاتك.
- أنت مجنون؟ المنطقة سياحية من أصلها، ماذا تريد أن تفعل بها... هل أنت اله لتقول للطبيعة كن فتكون؟ بذلك تغير من شكلها كما تريد.
- أنت الذي مخك ترللي لا تستوعب حالة الانفجار الدائرة في مخي، فكرك محدود، لا تود أن تخرج عن إطارك الضيق، دعك متقوقع في سجنك... يا حبيبي! يا رفيق دربي! أصغي إليَّ.. أنا أود أن أضع إطارا لهذه اللوحة الجميلة التي تراها بعينك، بحيث أجعلها متميزة عن كل مناطق السويد.
- إذا أعمل فيها مطاراً! آن ذاك تجبر الركاب على النزول بها، أن يمروا عليها مرور الكرام، ليروا البحيرة وهذه الأشجار الباسقة من صفصاف وصنوبر وأثل، والتي تغطي بقع واسعة من الأرض. علما الأنسان هنا نادرا ما يرى الشمس حتى لو كانت مشرقة، فأنها لن تستطيع أن تتخلل هذه الأشجار الباسقة بكامل خيوطها.
- والله فكرة.... لكن بدل المطار أفكر بأن أنزل القمر من جوف السماء، أثبته بخيوط في قمم هذه الأشجار فوق المنطقة الوسطية، بحيث يكون ليلها نهارٌ دائم...ها.. ما رايك؟ سيكون القمر معلقا فوق رؤوسنا بشكل دائم.
- الم أقل لك أنت مجنون!

- أنا عند وعدي، حين ابدأ بالعمل عليك أن لا تتقاعس وأن تبدأ معي، حينها نرى من هو المجنون أنا أم أنت؟

كان يفكر مع نفسه دون هوادة، تراءى للغير بوضوح تام، خاصة لأم وسيم! التي انشغل فكرها به كثيرا، هي أقرب الناس له، تعرفه جيدا، تعرف طباعه ومدى تفكيره وهوسه وجنونه. تعرف إذا ما شغلت باله فكرة؛ لن يتخلى عنها حتى يصل مبتغاه...

إذا هنالك هم ما شغل باله، أرهق فكره، ترى بما شُغلْ؟ ما السر الحقيقي وراء صمته وسرحانه؟.. أيمكن أن يكون قد جنَّ وأغرم بغيري؟... لالا مستحيل، لن يفعلها، أنا واثقة من شغفه بي.. لكن يجب أن أحرص وأتأكد، يجب أن أعرف بماذا يفكر وماذا يدور في خلده.

راودتها فكرة شيطانية للحظة، غدتْ أشبه بالوردة الصفراء يختنق في وجهها الابتسام، تود أن تكسر قفل مخه لتنظر بِمَ يفكر، فلم تصبر على جَلَدِها حتى هاجمته بعاطفتها قائلة:....

- ما بك يا حبيبي بم أنت مشغول؟
- ألا ترين ما نحن عليه؟... لا بد من عمل أبين به حقيقة من نحن، الأعلام الخارجي كبير وقوي، تحركه أيادي خفية معادية لنا، يا ترى كيف نواجهُ؟
- ولم تشغل بالك؟...أأنت المعني أم هؤلاء الدواعش؟
- العمل الإرهابي الذي وقع في فرنسا أستغله هؤلاء الأعداء ليلصقوه بنا وبديننا الحنيف، على الرغم من أن شعبنا هناك يتعرض لإبادة، وبلادنا تنتهك وتغتصب بأيادي قذرة، هم

أول من بادر بدعمهم وثبت أقدامهم... ألم تدعم فرنسا عصابات الإرهاب في سوريا ولبنان وليبيا، وقبلها دمرت تونس والجزائر؟ الم تزرع بريطانيا الكيان الصهيون في قلب الوطن ليبتزوا الشعوب العربية؟ من أعطى لهؤلاء الأنذال الحق من أن يستبيحوا دماء الفلسطينيين متى شاءوا؟ من أحتل العراق وشرد شعبه؟ من له مصلحة في دعم هذه العصابات والميليشيات التي تجوب بلداننا كالدبيب بالأسلحة والعتاد والمال، من شردنا من ديارنا وأوصلنا إلى هنا؟.... ألا ترين لم يكن لنا دخل في كل تلك المصائب، ألا يجب أن نرد على الكلاب المسعورة التي تلاحقنا بعمل يحفظ كرامتنا.

- ماذا بيدك أن تفعل؟.... أنت بنفسك تقول لقد هجرونا، شردونا، فما باليد من حيلة.
- حتى لو شردنا وهجرنا، هناك ما لن يستطيعوا السيطرة عليه أبدا. نحن نمتلك قلوبنا وعقولنا، قلوبنا مليئة بالمحبة والإخلاص والصدق لكافة الناس، وبالذات لوطننا وللذين آوونا وضيفونا. أما عقولنا! فهي حالة خارجة عن السيطرة، هو السلاح الأقوى الباقي في أيادينا، أقوى من كل ما يصنعون ويبدعون، نحن نفكر عكس ما هم يفكرون، نمضي في تيار عكس تيارهم تماما. تفكيرنا نابع من سمة المبادئ المغروسة فينا، من واقع حضارتنا وديننا القيّم، من أخلاقنا الحسنة والقيم الأصيلة التي يعجزوا أن يدركوا شواطئها.

نحن نفكر بالحب والعمل، وهم يفكروا بالقتل والاغتصاب والسرقة، لن يستطيعوا تجريدنا من تفكيرنا النير. أريد أن استغل عقلي في عمل يمجدنا كمسلمين وكعرب في هذه

البقعة النائية من العالم، ليذكرونا فيما بعد، ليقولوا هاهنا كانوا هؤلاء من نعتتهم الإمبريالية العالمية بالإرهاب...
بالله؛ أيوجد إرهاب أكثر من تعسفهم وإرهابهم لنا؟..

أخذ ورقة وقلم من أبنته لانا وصار يرسم ويخطط شكل المنطقة على الورق، ربما الورقة تعينه على إيجاد شكل البصمة التي يبحث عنها، ربما تقرب له الفكرة أكثر مما على الأرض، لصغر حجمها وسعة الأرض.

- أنظري يا أم وسيم؛ هنا ملعب الكولف، هنا بناية اوستربو، اسكولان، فاستربو، رسبشن أو المطعم، نوريبو، اوليمبن.
إلا ترين بأن شكل المنطقة شبه بيضوي، تشبه دائرة القطع الناقص، البحيرة تحدها من الجنوب، والغابات من الأطراف الأخرى.
- وماذا يعني ذلك؟
- هذا يعني المنطقة بحاجة لعلامة بارزة في الوسط ليشع نورها على المكان.

ظل هذا الهاجس يشغل باله كيف السبيل للوصول إلى البصمة، وكيف سيكون شكلها ولونها؟ ترى هل سيحقق الحلم، أم سأبقى قابع في جحر الزاوية دون تأثير؟ أهي نجمة في جوف السماء، أم هي أقرب من حبل الوريد؟.

وهو في خضم تفكيره ،باغتته رغدة أبنت صديقه بسؤال عفوي بريء.

- عمو أبو وسيم .. كيف يكون العَلَمُ نورٌ ؟ أنا لم أفهم العبارة، ممكن توضح لي ذلك؟
- لا لا يا حلوة، لا يا رغدة؛ ليس العَلَمُ نورٌ، إنما العِلْمُ نورٌ....

العَلَمُ... العَلم، إذا هو، هو العَلَمُ... نعم وجدتها.. العلم هو البصمة التي أبحث عنها.

ذهب يبشر أم وسيم والفرحة تملأ شغاف قلبه، لقد حُلتْ العقدة التي أبحث عنها، استلهمتها من جملة عابرة أخطأت بلفظها طفلة. نعم -- كل شيء مسخر لنا في هذه الطبيعة، الحيوان والنبات والشمس والقمر والأرض والسماء، كلها في خدمة البشر. ألم يتعلم قابيل دفن أخوه هابيل من طائر الغراب؟ إذا علينا أن نستلهم أفكارنا من المحيط الذي نعيش فيه، من تجارب الآخرين حتى لو كانت بسيطة.

بعد أن أستلهم الفكرة صار يفكر بطريقة تنفيذها، ود أشراك جميع من يعيش معه في الكامب بتنفيذ الفكرة، لتكون للبصمة سمة الطابع الجماعي.

في أحدى المساءات اجتمع مع لفيف من معارفه الذين يعيشون ظرفه، أجتمع مع كل من(لورانس والدكتور عبد العزيز وأبو عبدو وأحد السويديين) في باحة الجلوس المُشْرِفَة على واجهة البحيرة من أمام المطعم. وقد طرح عليهم فكرة أنشاء أكبر عَلَمْ في السويد، قائلا لهم:...

- يـا جماعـة أود آرائكـم، عنـدي فكـرة أنشـاء أكبـر علـم فـي السويد.. هل لكم أن تساعدونني على كيفية تنفيذ مثل هذا المشروع؟ ماهي المواد الممكن استخدامها؟ وما قيمة تكلفته؟ ما رأيك يا دكتور..
- فكرة لطيفة جداً... هل ينفع القماش..
- أنـا فكرت بـأن نجعلـه من الحجر أو الحصـى النـاعم، نرتبـه على مساحة مائتي متر مربع، ثم نصبغ البقعة بألوان العلم؟
- السويدي: ما رأيك لو جعلته من صفائح البلاستك الملونة؟ أعتقد يكون أفضل.
- لورانس: لا أظن ينفع البلاستك نتيجة الطقس المتقلب في هذا البلد، فالعواصف والأمطار والثلوج دائمة، حيث تأثر به التعرية فيبهت لونه مع الزمن، إضافة لاستقطابه للغبرة، والتي تصبح مع الزمن أشبه بالصمغ لا يمكن جليه..
- عبدالعزيز: إذا فكرة الحجر هي الأفضل، ربما الحصى النـاعم الملون يكون أكثر جدوى، أو نجعلها من قوارير المشروبات الغازية بعد أن نملئها بالمياه الملونة الأزرق والأصفر.
- أبو عبدو: يا دكتور! الحصى أيضا يلم الأوساخ والغبرة، والقوارير ممكن أن تتكسر، ها أنت ترى فصل الخريف وكمية تساقط أوراق الشجر التي لا يمكن السيطرة عليها. أنا أفضل رسمه على جدار أحدى البنايات.
- لورانس :ما رأيكم لو نشرك السيدة رندا، وهي مهندسة شاطرة، لربما نجد عندها حل أفضل. ها هيَّ قادمة.

رندا سيدة مرموقة بعقد الخامس من العمر، وهيَّ قادمة من ثكنتها تمشي الهوينا بخطى تحفها الحذر، لا تدرك وقع القدم على الأرض، لهدوئها واستقامة قدها المياس، حيث دائما ما تنفرد بذهابها وإيابها لبناية اوستربوا التي تقطن بها.

أستأذنها لورانس أن تنظم للمجموعة، وقد لبت النداء مسرورة. باشرها أبو وسيم بشرح فكرته.

- يا رندا! أنا أفكر في عمل صرح كبير يشرف أهل الكامب، أود أن أعمل أكبر علم في السويد، محتار في نوع المادة التي استخدمها، لم نتوصل إلى فكرة ترضينا. كونك متميزة في مجال عملك، هل لك تنقذنا من المأزق؟ هل يمكن أن ترفدينا بفكرة ما؟
- أظن أن السويد مشهورة في الغابات، فمسألة الخشب متوفر ورخيص جدا قياسا للمواد الأخرى، أضف إلى ذلك تحمله لتغيرات الطقس، فهو لا يتأثر بالمناخ.
- يسلم ثمك، فكرة صائبة، الفكرة اكتملت، أدركنا الغاية المنشودة، فعلا الخشب هو أفضل مادة مقاومة وأرخصها ثمنا.

صار يفكر بنوع الخشب، وبتكلفته، وطريقة تثبيته واستخدامه،....الخ، لم يهدأ له بال، صار أشبه بالطير المهاجر، يرجوا ظل يأويه....

في الصباح اليوم التالي؛ طرح الفكرة على إدارة الكامب وبالذات على السيد بار المشرف على الكامب، على أن ينجز المشروع تحت

أشرافه وأشراك مهاجري الكامب... لقد وجد اندفاعا وتأييدا من قبل الإدارة، بدورهم نقلوا الفكرة لمسؤولي المنطقة والخيرين من أبناء السويد. طلب من لورانس أن يرسم له نموذج فوتوشوب، لتطبيقه على الأرض. أجتهد لورانس، قدم له نموذجا مصغرا وأن لم يفي بالغرض، كونه خبيرا في مجال التصميم والديكور.

ما كان يشغله؛ هو نوع الخشب المستخدم...يا ترى؛ أيمد مساطر خشب على طولها، يثبت أطرافها في الأرض؟ أم يفرش الأرض بقطع أبلوك من الخشب المضغوط؟ أم يزرعها كعرانيس؟..... يا إلاهي أسعفني !! صار يدعو لنفسه بالفرج...

لكنه لم يتأخر بإرهاصاته.

نعم نزرعها، نعم نزرع الخشب، نُقَطِع المساطر بطول ثلاثين سم للقطعة الواحدة، ندبب أحد رؤوسها ونطلي الطرف الأخر بالوان العلم، ندقها كمسامير في الارض، بذلك لن تتأثر بالتعرية، كما يمكن إعادة طليها بالأصباغ بين فترات متباعدة.

أنها فكرة صائبة. يقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس .."ما يبحث عنه الرجل المتفوق في نفسه، يبحث عنه الرجل العادي في الآخرين".

ذلك ما ينطبق على أبو وسيم تماما. أنه عصامي، ينبش خدود الفكرة بأظفاره حتى يتقطر منها الدم.

لم يتوانى في عمله حتى وصل لنتيجة مرضية. .. ذلك ما دفعه أن يتحرى عن مصادر الخشب وأسعارها، فقام بجولات مكوكية لعدة

مخازن بيع الخشب، في كنيستا وفْلِيِّن، وقد تدخل عدد من الخيرين من آهالي المنطقة في إسعافه بالأرض والمادة والخشب والمستلزمات الورشة والنقل والملحقات الثانوية...الخ، لاقى تشجيعا معنويا لأدرك مرامه، الأمر بات يقينا واقعيا، وما إلى ذلك سوى أيام... حدد الموقع مثلما أخبر زوجته في قلب القطعة، وفي وسط العيون، في مكان تعليق القمر.

ما أن جز الحشائش من الأرضية؛ حتى وجد اندفاعا كبيرا من عناصر الكامب، يوم بعد يوم صار العمل يأخذ منحا جديا وواقعيا، الفكرة كانت سحرية، أجبرت الجميع على الاشتراك بها دون أن توجه لهم دعوة، هناك من قطع الخشب، وهناك من صبغ الخشب، وهناك من نقل الخشب، ومن غرس الخشب بالمطارق حتى شمعت الثياب على الأجساد للجهد المبثوث والعرق المزاح. وهناك من أوصل التيار الكهربائي رغم برودة الطقس، الكل أجتهد باختصاصه كخلية نحل متماسكة.

الفكرة جعلت للجهد المبذل ديناميكية سحرية، بحيث مضى يتناغم مع تكور الفكرة، أرتقى مع قدرة التنفيذ وسرعة التحكم. حتى بات ذلك الجهد المضنى يتراءى كمصباح للآخرين، يستلهم طاقته وقدرته من قدرية الفكرة، ومن وجدلية اليقين..

الجهود المبذلة حثيثة، كريمة، رسمت شكل القمر فوق سطح كامب صولبكا. بانت البصمة على حلتها الأخيرة كصرح يبتهج به الجميع، بحيث جعلت السويد تبتسم لهذا الصرح، بعد أن أطرقت أعلام الدولة

السمعية والمرئية والمقروءة إلى تقييم الحدث وتتبع آليات العمل. وربما سيخلد العمل لعشرات السنين.

وضع للعلم إطار بعرض متر، زين بشبكة من الحصى الناعم المطلي بالإسمنت الأبيض، ليبرز بشكله الأنيق. كما أحيط بهالة من الإشعاع تحت الإنارة الساطعة بعدد من البلوجكتورات في زواياه الأربعة، فبان يسطع في الليل والنهار. حيث شغل العلم مساحة 20× 30 متر مربع.

بعد انتهاء العمل وقف السيد عماد إلى جانب رفيقه أبو عبدو يتأمل مشروعه مبتسما، جذلا، فخورا بنفسه وبرفاقه، بعد أن عاهد ضميره وقدم هدية متميزة للسويد، ممازحا أبو عبدو قائلا له:...

- ما رأيك يا أبو عبدو؟ كيف يبدو لك المنظر بعد أن أكتمل العمل؟
- ألم أقل لك أنت مجنون؟ لن يعمل هذا إلا مجنون.

ثم مضيا للبهو يتأبط أحدهما ذراع الآخر، ليرتشفا القهوة المرة والضحكة تملئ شدقيهما.

2015\12\30

كيد العقارب

ذات يـوم ;كنـت أتنـزه وأبنـي فـي حديقـة حيوانـات مدينـة العـين، حينهـا سـألني سـؤالا عـابرا حـين دخلنـا فـي صـالة العقـارب والثعابين، حيث قال:..

- بابـا؛ هـل لـك معلومـات عـن العقـارب، لقـد قـرأت فـي صـفحات النـت، بـأن لدغـة العقـرب لا تقتـل أنمـا تـؤذي فقط، هل هذا صحيح؟
- والله يـا بنـي أصـحاب الاختصـاص هـم أدرى بـذلك، أقصـد فـرق الطـب والصـيدلة. لآنهـم مـن خـلال تحليـل محلـول السـم يمكـنهم معرفـة قـوة تـأثيره علـى خلايـا الأعصـاب والمـخ... لكـن أنـا لـي علاقـة وثيقـة بالعقـارب أعتبرهـا شـبه صـداقة، لقـد جمعتنـي الصـدفة بهـا فـي مواضـع شـتى، سأشـرحها لـك لتكـون لـك فكـرة عـن حياتها.

1

برنامج شايف خير

حين كنت فتيا بعمر أحدى عشرة سنة؛ لم يكن في بيتنا تلفازا، حال الناس عامة، لحديث انتاجه ولغلاء سعره قياسا لمرتبات الناس. كان يعرض من على الشاشة برنامج شايف خير كل

يـوم خمـيس فـي تمـام السـاعة التاسـعة مسـاء، وهـو برنـامج اجتمـاعي ترفيهـي يطـرح بـه المقـدم فخـري الزبيـدي اسـئلة علـى المشـارك فـي حالـة جوابـه يحصـل علـى جهـاز كهربـائي للبيـت كـأن يكـن تلفـاز أو ثلاجـة أو مبـردة أو طبـاخ ....الـخ. كنـت أتـابع البرنـامج مـن مقهـى منشـد القريبـة علـى دارنـا للاسـتمتاع بخفـة دم المقدم.

البرنـامج أسـمه- شـايف خيـر- أشـتهر البرنـامج بسـبب شـهرة مقدمـه الفنـان المبـدع فخـري الزبيـدي صـاحب النكتـة والطرفـة، إضـافة للجـوائزه القيمـة التـي كـان يقـدمها مـن برنامجـه فـي عـام 1970. كـل تلـك الجـوائز هـي حديثـة علـى البيـت العراقـي، ولـم تكـن موجـودة فـي الاسـواق قبـل عشـرة سـنوات سـابقة. حاجـات بيت ضرورية نتجت مع بداية الثورة التكنلوجية العالمية.

وأنـا أتـابع البرنـامج عـن بعـد منـتعلا نعـلا مـن الاسـفنج ذات سـيرين. مـع بـدأ بـث البرنـامج الكـل كـان منشـغلا ومتابعـا للبرنـامج، لشـعبية المقـدم، ولقيمـة الجـوائز التـي كانـت لهـا قيمـة عاليـة آنـذاك علـى النـاس بشـكل مفـرط.. كـان المسـاء منعشـا مـن ليالي أيلول تغشيه نسمة هادئة.

وأنـا فـي قمـة لهفـي ومتـابعتي أحـاول أن اسـتقطب النظـر للشاشـة الصـغيرة مـن خـارج المقهـى، نتيجـة للزحمـة المكتظـة فيهـا ولصـغر سـني الـذي يحـرم علـيَّ دخـول المقـاهي، مسـتندا علـى ظهـر أريكـة مطروحـة خـارج المقهـى فـي الوقـت الـذي بـه طـولي لا يسـاعدني علـى الاريحيـة فـي مشـاهدة التلفـاز. وفـي لحظـة

غفلة بصعقة كهربائية شلت قدمي الأيسر، ما أن صرخت حتى شاهدت عقربة متوسطة الحجم سوداء اللون تنزوي بين أرجل الأرائك المنصوبة خارج المقهى. هجست بالنار تضرم في أصبع الكبير لقدمي الأيسر، لسعة شديدة، مفاجئة، شلت العصب، صرت أصرخ من شدة الالم.

مع اللسعة صرخت بقوة.. آه.. أنتبه عليَّ الجمع، وما أن سحبت قدمي وتتبعت سر الحدث، حتى شاهدت عقربة سوداء متوسطة تنسحب هاربة بين أرجل الأرائك إلى داخل المقهى.. صار الكل يبحث عنها، لكنها اختفت عن الأنظار؛ سرعان ما أمتد الألم للساق والفخذ وصولا لخاصرتي. صرخت:..

- عقربة، عقربة سوداء لسعتني، هربت بين أوجل الأرائك...

ربما جاءت من الفرع الترابي المجاور للمقهى، أو خرجت من زوايا جدران المقهى لقدم البناء. على أية حال سحبت ذاتي عائدا للبيت، تركتهم يبحثون عن العقربة..

المسافة بين البيت والمقهى 100متر تقريبا، لكنها أصبحت 100كم على حالي. لشدة الألم الذي دب في أوصالي، لم أستطع أن أسند جسمي على القدم، فقدت الاحساس بها، صرت أسحب برجلي نحو المنزل كيفما شاء، أضحت كثقل متعلقة بخاصرتي، لا أستطيع الارتكاز عليها. الدموع تتصبب من مقلتيَّ، تنهمر كصنابير مفتوحة على الخدود دون إرادة،

رغم قرب البيت؛ قطعت تلك المسافة بشق الأنفس، مع خلو الطريق من البشر، الكل كان منشغلا بمتابعة البرنامج.

في داخلي كنت أبكي دون صراخ، كاتما أنفاسي، الالم يسري في أعماقي، الدمع يترقرق في المقل، الروح عاجزة على تحمل سقم الألم. قطعت المسافة وأنا اسحل القدم للبيت، فلم أصل إلا وأنا منهك القوى، ادرك محراب الدار بشق الأنفس. دلفت باب الدار بجسدي، أنفلج، أسترعى أنتباه والدتي وأخي الأكبر اللذان كانا جالسين في صدر الحوش، تحت الطارمة، حينها كان أخي في طور المراهقة، يحد ويلمع خنجرا صغيرا في يده، لازال لم يتجاوز مرحلة البلوغ.

غصة هاجت قلب الوالدة، خوفا عليَّ من المكروه الذي تعرضت له، وأنا أسحل بالقدم والدموع تترقرق في المقل، حينها سألتني:..

- خيرا؟ ما بك يا ابني؟
- لسعتني عقربة في أصبع قدمي الأكبر، وأنا واقف خارج مقهى منشد أتابع برنامج شايف خير، عقربة سوداء لمحتها تهرب لداخل المقهى.
- لا تخف، أرني موضع اللسعة. قال ذلك أخي.

من شدة الألم المراق في الساق، لم أشعر بأصبع القدم، ولكن مكان الغزة واضح، ذات رأس محمر.

حينها حز بخنجره منطقة اللسعة على شكل علامة زائد، ثم صار يضغط على أصبعي حتى نزف أخرج السم ممزوجا بالدم..

لم أشعر بحدة الخنجر لشدة الخدر السائد في القدم، ما ان خرج قيح السم الأصفر مع الدم المراق؛ حتى شعرت بالراحة تدب في الساق، كأنه بعمله سحب الألم منه. عاد إحساسي تدريجيا بالقدم، أنحصر الألم في الجرح الجديد المفتعل، بعمله كأنه سكب دلو ماء مثلج على نار الالم. حينها سألني بماذا أشعر:..

- شكرا لك، أنتهى الألم.

*****

2- زيارة آمر اللواء

مع شروق شمس تشرين، مع برد الصبح الصحراوي؛ طرقت أذني صوت صافرة الإنذار التي أطلقها ضابط الصف النائب ضابط ضاحي، ذلك الإنسان المرح، الطيب، أبن الناصرية المميز ببشرته البيضاء وطوله الفارع ونحافة جسده وشعره الأشقر المبيض..

حينها كنت نائما تشاكسني لسعات البرد الشقية، منكمشا تحت بطانيتي وفرشتي، غارقا بين ذبذبة أحلام عابرة، يثقل أجفاني سلطان الكرى، أتبع رغبة ملتاعة بين جوارحي. كان ذلك قبل

أن تجلجل أذنيَّ تلك الصافرة الفضة، التي جعلتني أنتفض من نومي وأنفض غبار الحلم عن أجفاني.

الصافرة فيها جزع، هزت جذعي، أسقطت أوراق صفراء من غصن الكرى، محت عن الجفن صمغ الوسن. أنبأتني عن وجود تغيرا حاصلا في ظرف الجبهة، يتطلب التهيئة والمواجهة قبل أن تنعكس النتائج علينا.

الصافرة تدل عن وجود حالة مستعجلة أو مستعصية، أو وازعا ما يُنبئ بخطر قادم إلينا، علينا التهيئة بأسرع ما يمكن، لتلاشي الخطر. فالحرب سجال والمفاجأة واردة...

تلك الصافرة أقلعتني عن عالمي كمسمار نزع عن اللوح، أقلقتني، خرقت حدود الصمت، شتت عصافير الظن والتأمل من رأسي. داهمتني بالريبة، عجلتُ بأمر نهوضي، شرعت شكوكي تستبق توقعاتي بحسابات متقلبة.. تشظى الحلم من الرأس، لم يبقى منه سوى خيط دخان رفيع تماهى في الأفق خطوات القدم، لأسرع إلى استلباب الخبر.

- يا لله خير.. ترى ماذا هناك؟...

ما أن استيقظت أروم غسل غبار الكرى من على وجهي، حتى حل النائب الضابط ضاحي شاخصا فوق رأسي، محفزا إياي على سرعة تهيئة ذاتي..

- هيا يا ياسر... جهز نفسك بسرعة.. آمر اللواء على وشك الوصول، سيزور وحداتنا خلال ساعة من الآن!

- حاضر سيدي، خمس دقائق وأكون جاهزا.

كان ذلك بحدود الساعة السادسة صباحا من أحد أيام شهر تشرين الأول من سنة 1984 في قاطع شرق البصرة.

حينها كنت أحد منتسبي رعيل الهواوين الأول في قاطع الدير شرق البصرة.. يبجل ذراعي الأيمن خيطان سوداوان من الكتان، دلالة على رتبة نائب عريف معين، وهو صنف فني. كان في كل رعيل ينتسب ضابطين، أحدهم يتجه للمرصد والثاني يكون في موقع القيادة. في ذلك اليوم كان الآمر مجازا، لذا أصبحت بفعل الظرف مسؤولا فنيا عن موقع الرعيل، فيما كان النائب الضابط ضاحي مسؤولا إداريا عليه.

أي علَيَّ تحمل مسؤولية تنظيم السجلات والخرائط وتوجيه المدافع والإعداد للجاهزية وإعطاء أوامر الرمي حين اللزوم.. فيما كان على النائب الضباط تنظيم سجلات الغياب والخفارة والمؤن وتهيئة العجلات وتسجيل الطلبات والنواقص وتنفيذ أوامر الحركة، واستقبال الضيوف، وأمور أخرى عديدة.

كنا نقطن في أرض صحراوية جرداء، قاحلة، مستوية، أرض يكتنفها رمال بيضاء وصفراء دقيقة جدا كدقيق البر، تستطير مع الريح ضاربة وجوهنا. أرض خالية من نغمة الحياة، خالية حتى من الأشواك البرية، لا يعيش فيها سوى رفيق الدرب الجربوع، الذي يقاسمنا أرزاقنا(لا أدري كيف يعيش في تلك البقعة التي لا ماء ولا زرع فيها). أضحت مسألة تطاوله على مؤننا روتينية، يسرقها سرا وعلانية، لم يعد يترك لنا كيسا إلا

قرضه بأسنانه الحادة، الناعمة، تلك التي تشبه مسامير الأحذية. لذا كنا نعلق اشيائنا من خبر وأجبان في سقف الغرفة كي لا يصل اليها، ومع ذلك لا نستطيع منعه وكف جماحه.

الغرابة تكتنف في ظرف الطقس، ففي النهار رياح سهكة لا تستكين وفي الليل هدوء ونجوم وقمر.. كأنها حالة قدرية مسيرة لواجب ما، تبدأ بعزف عزيفها مع الساعة التاسعة صباحا ليشتد عصفها عند الظهيرة مع ارتفاع قرص الشمس، ثم تهدأ رويدا مع انكسار الشمس حتى تستكين بعد الخامسة مساء. هذا ديدنها نهارا في كل يوم خلال فترة الخريف... فيما يمضي الليل بسكون غريب، تتلألأ نجومه ببريق تزداد سِحْرا بعد منتصف الليل.

بعد تلك المعمعة تكون قد تشبعت أجسادنا قرفا وتنكيلا بما فيه الكفاية، كل منا يصبح في دوامة فلكه يدور في محنته وعنائه وكركبة ملاذه، كحشرة تشعر بمرارة سكرة الموت ننشغل بأنفسنا ونفض الغبرة وكتها في ثنايا ملابسنا والفرش، أو تلك المتطايرة مع الأثير، والتي تضيق أنفاسنا وتغطي حوائجنا خلال نثلها على البقاع كالمطر.

لا أدري كيف تحملنا الوضع، أهجس بالمقاتل مجرد من الاحساس كالحمار يتحمل مصاعب بصبر غريب معنى، ولا أدري كيف يستقبل الحالة من الذين يشكون مرض الربو، حيث الغبرة تدخل في جوارحنا وعيوننا وأنوفنا ولعابنا وحتى في مشاعرنا، حتى نزكم ونبصق بها بعد أن تملأ خياشيمنا

وأفواهنا قيحا ونكالا. بحيث خلال العصف تنعدم الرؤيا تماما، وبالذات خلال فترة الذروة، بحيث أبصارنا لا تخترق الحواجز الرملية لمسافة عشرة أمتار في أحسن الأحوال.

ذاك هو منهج الطقس الذي كنا نعيشه على مضض قرابة شهرين من أشهر الخريف، كأننا تعودنا على ديدنه رغم الإسفاف والقرف والضرر الذي كان يصيبنا، لم نكن نغتسل كما يجب، ولا نأكل أو نشرب برضا النفس. لشدة ضجرنا ويأسنا أضحينا جزء من الحالة التي تعودنا عليها.

على كل بعد سماعي صافرة الانذار انتفضت من فرشتي والكدر مطبق على جفنيَّ، ارتديت جواربا، ثم لبست البسطال على عجلة من أمري. كنت قد أعددته مسبقا بحيث يسهل ارتدائه وخلعه طلبا للظرف، ما أن أضع قدمي في قمقم الحذاء حتى يأخذ مكانه بالسهولة المعتادة. وقد تعودت أن أضرب كعب القدم بالأرض ليأخذ الكاحل محله، وخاصة حين أرتدي الحذاء في وضعية الجلوس، ثم أرفع سُحابة الحذاء (الزنجير)، ليطبق الحذاء على رسغ القدم.

حين ارتديت الحذاء؛ شعرت بكتلة صلبة تحت كاحل القدم الأيمن، أشبه بكتلة تراب مركونة تحته، ولعجزي وكسلي من جهة واستعجالي بتهيئة نفسي وموقع القيادة قبل أن يحل آمر اللواء من جهة أخرى؛ لم أعر أهمية لذلك، فلم يكن عائقا لحركة القدم.

غسلت وجهي ويدي ومن ثم فطرت على عجالة بشريحة جبنة معلبة، كانت قد تعرضت للسلب والقرصنة من قبل رفيقنا الجربوع، فهو شريك دائم لنا في الزاد والسكن - وكما يقول المتنبي: رب عدو ما من صداقته بد-

استعنت بقطعة خبز لم يبقى فيها من رمق سوى رجاء أخير قبل أن تتصلب أو تتعفن، وذلك بعد أن نفضت كيسها المشبع بالغبرة جراء عصف يوم أمس.

بعد أن فطرت فضلت أن أشرب كأس الشاي في موقع القيادة الكائن في مركز الرعيل على بعد أمتار فقط، لأكمل واجبات التهيئة لسجلات الزيارة المرتقبة. على الرغم من أن كل شيء كان جاهزا في حينه؛ إلا أن الغبرة غطت على بروقها وبهجتها، إضافة للتأكيد من جاهزيتها لزيادة الطمأنينة..

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) صدق الله العظيم..

كان أمرا ضروريا لتجنب أية سلبية ممكنة تسجل ضد رعيلنا.

أتممت المعاينة والملاحظة على سجلات الرمي وإعداد الخرائط والترتيب داخل غرفة القيادة، وشرعت بتنظيفها من تراكم الغبرة، ثم اتجهت لتوجيه المدافع حيث أعِدتُ توجيهها مرة أخرى على حسب أهدافٍ مختارةٍ، موزعة على قاطع الجبهة، بذلك كنت قد أنهيت عملي قبل أن تقارب الساعة الثامنة صباحا.

مـن جانبـه النائـب الضـابط ضـاحي كـان قـد أتـم عملـه كمـا يجـب إلـى جانـب مجموعـة القـداحين، بحيـث لـم تعـد هنـاك شـائبة فـي ثيابنا الناصعة إلا دعكناها بالغيرة والنضوج والافتنان.

لـم يتـوانى أحـد فـي عملـه ولـم يتقـاعس، الكـل عمـل بـإخلاص منقطـع النظيـر، القـداحين والمخـابرة والسـواقين وأنـا والنائـب الضـابط كنـا نعمـل كخليـة نحـل متماسـكة، لـم نشـعر قـط بغيـاب آمـر الرعيـل. أنصـب همنـا ومشـاعرنا علـى أن لا تسـجل علـى رعيلنا نقطة سوداء....

كـان الضـمير هـو رصـيد كـل مقاتـل، كـراع الشـياه، علـى أن لا نكـون أقـل شـأنا وعزمـا مـن الرعائـل الأخـرى التابعـة لبطاريتنـا، علـى ضـوء المنافسـة والتقـدير، حيـث البطاريـة تحتـوي علـى ثلاث رعائل كما اسلفنا.

تـأخر موكـب آمـر اللـواء كثيـرا، جعـل الملـل يتسـلل لـدواخلنا، فللانتظـار نصـاب ينكسـر إذا مـا زاد عـن حـده. كنـا نـود أن نفتـك مـن تلـك الزيـارة لثقـل أمرهـا، كونهـا لـم تـأتي إلا للمراقبـة والمحاسـبة والتفتـيش... ربمـا لـن ينالنـا منهـا سـوى تـوبيخٌ يقلـل مـن شـأننا أو شـكرٌ لا يزيـدنا، فهـم فـي عملهـم دائمـا مـا يحـاولون اشـعار المقابـل بـالنقص اتجـاههم! كـي نبقـى نتـوجس ظلهـم ونحسـب لزيـاراتهم ألـف حسـاب، لنعمـل بشـكل أرقـى وأفضـل ممـا وصـلنا إليـه؛ إضـافة إلـى أن المجتهـد يضـع نفسـه تحـت أنظـار العيـون، بحيـث ترمـي القيـادة ثقلهـا عليـه فـي أنجـاز معظـم مهامهـا، ولـو كـان فـي جـوف المسـتحيل. ولـن يكـافئ المجتهـد إلا

بكثرة الواجبات الإضافية، هذا ما استنتجته من سياق التجارب العسكرية التي مررت بها..

للثقل الذي كنا عليه؛ نشعر بالزمن قد توقف عن الجري، تجاوزت عقارب الساعة الواحدة ظهرا ولم يبزغ هلال آمر اللواء في الأفق، وكأنه تاه أو غار في خضم زيارات أخرى بعيدة عنا..

ربما العاصفة غيرت مجاره، فهي غير معنية بزيارته، حيث بدأت تصب جام غضبها على رؤوسنا، الرياح الهزيمة جمعت شتاتها لتصب جام غضبها وعزيفها على رؤوسنا. أضحت الرمال تتحرك تحت أقدامنا كسيل المياه الجارية، نشعر بلسعاتها كدبابيس تشك اقدامنا، تضرب وجوهنا، غبرة ارتقت سلم الأفق..

كان قد دب اليأس في ربوعنا، بعد أن مر موكبه من جانب الرعيل بعد الواحدة ظهرا متجها إلى وحدات المشاة، هذا يعني بأنه لن يزور وحدتنا، ربما منعته العاصفة، ربما جلجلت هواجسه أزمة ما في الجبهة الأمامية. لذا مر من جانبنا كسحلية تسحل ذاتها وسط اهتياج الريح نحو خطوط التماس..

وبعد أن تخطى حاجز رعيلنا، أبلغنا النائب الضابط ضاحي بأن وضع التهيئة سيبقى على ما هو عليه حتى يأتينا أمرا من القيادة. وقد يعطف علينا خلال عودته الميمونة لمقر اللواء.

لكن ذلك من المستحيل، فلن يستخدم ذات الطريق في العودة، لذا في إيابه كان قد سلك مجازا آخرا، حينها تأكد لنا إلغاء زيارته لوحدتنا.. حينها قاربت الساعة الثانية ظهرا كانت عجلة القصعة قد ادركت وحدتنا، وهي عجلة معروفة لنا، عجلة نوع زيل 66 الروسية الصنع.

زحفنا نحوها كدبيب النمل كل منا أخذ نصيبه من الأرزاق. كانت قصعتنا مكونة من رز مشرب بمرق البطاطا وبرتقالة وقرص من الخبز. وقبل أن نصل بها الملاجئ كانت قد تبهرت برشقة من الغبرة الناعمة، كما عصبت أجفاننا بكحل من ذرات الغبرة الصفراء.

دلف كل منا لملجئه، ليتحلل ويتغدى ويصلي ويأخذ قسطا من الراحة، قبل أن يعاود عمله الذي بدأه صباحا مرة أخرى في الفترة المسائية بتنظيف ما استخلفته الريح وتهيئة ما خربته الغبرة..

خلال جلوسي وانا أخلع فردة البسطال؛ لاحظت كعب الجوارب مبلل من موضع الكاحل، دفعني الفضول لأرى ما في كعب الحذاء من أمر، وإذ بي أرى قطعة سوداء داكنة كالفحم عالقة داخله، نفضت الحذاء بقوة على الأرض حتى سقطت منه كتلة مهروسة سوداء تبينت لنا عقربة سوداء كبيرة الحجم، كانت قد تخفت في الحذاء جراء لسعة البرد.

حين ارتيدت الحذاء كنت على عجل من أمري، بذلك دعست عليها، عقصتها بكاحل القدم قبل أن يرتد لها طرفها، مع

ضرب كعب الحذاء بالأرض كنت قد قضيت عليها تماما قبل أن تهيئ ذاتها لمهاجمتي، بسرعة ارتداء الحذاء كنت قد جردتها من نواياها الخبيثة تماما، مع تضييق مجالات الحركة. حينها حضر الموقف كل من المخابر سبتي والنائب الضابط ضاحي اللذان دخلا معي الملجأ. حمدوا الله على سلامتي، العملية كانت صادمة لي ولهم.... تلك العقربة كانت مهيئة لمهاجمتي لولا لطف الله الذي أوعز بخبر قدوم آمر اللواء والذي بدوره أعطاني دافعا قويا لأسرع في صب جام غضبي عليها دون أن قصد، كانت إرادة الله حاضرة في درء خطرها. عسى أن تكرهوا امرا فهو خير لكم. صدق الله العظيم

*****

3- كأس الشاي

وفي واقعة أخرى كادت أن تكيد بي عقربة، لولا رحمة الله التي نزلت في لحظة وصولها قدمي. كان ذلك حين كنت جالسا تحت جنح ظلام ليلة حالكة السواد، تحت رابية المرصد المواجه للعدو في قاطع الطيب أبان الحرب العراقية الإيرانية، شرق مدينة العمارة.

كنت سارحا بمصيري وبصور الأهل والحبيبة، في وضع كئيب معقد يخالف تطلعي وأحلامي. مشتت الفكر والمصير،

صمت يغطي ذهني، أهجس بالأفكار شلال يتدفق من ذلك الصمت ليصب في خاطري، فلم يخلد البال للراحة قط.

كان الجو ساكنا تماما، الحراة معتدلة، الجبهة هادئة، النجوم متلألئة، السماء الصافية، في تلك الليلة كان القمر لازال في سبات قبل ولادته بيوم، لذا غرقت الأجواء بدهمة شديدة. لا يعكر صفوة الهدوء سوى بعض الرشقات المتقطعة من سلاح (البي كي سي) التابع للعدو، الذي يطلقه بين الحين والآخر لتمشيط الجبهة. ليتصيد المساكين غدرا، في محاولة منه زعزعة النفوس في وسط تلك السكينة المريبة في تلك الليلة الداجنة، ليثبت بتلك الرشقات بأنه موجود.

كنت جالسا تحت رابية المرصد، في ظل ذلك السكون، أنتظر المخابر سبتي أبن البصرة الذي دائما ما كان يرافقني أن يجلب لي كأس شاي لنتسمر الليل الطويل. بصراحة؛ تلك الرصاصات كانت تخيفنا وهي تعبر من فوق رؤوسنا بصفيرها الموحش منذرة بالخطر، وبخطر الوقوف والمشي بطول القامة. تلك الرشقات تعبر من فوق رؤوسنا لتهبط بكل قوس إلى الوادي.

خلال إسهابي مع إسهاب السكون المدهش، كانت الساعة قرابة الحادية عشرة ليلا، لفتت سمعي صوت دحرجة حجرة قرب قدميَّ على الرغم من أني لم أبدي أية حركة، هجست بها كصرخة إنذار جذبتني لها، شدَّة انتباهي، جعلتني أستعين بمصباح صغير بيدي لأمعن النظر بما يدور حولي. ركزت

إشعاعه على مركز الصوت، وإذ بي أشاهد عقربة سوداء كبيرة الحجم تتقدم نحوي وعلى بعد شبرا من القدم....

وبما أني كنت جالسا على سفح تلة؛ فخلال تقدمها كانت قد دحرجت تلك الحجرة، حينها حمدت الله على اللفتة والفطنة التي شعرت بها. حينها دعست عليها ببسطالي (الحذاء العسكري)، شاكرا الله على لطفه وعطفه ورحمته. حينها استغفرته كثيرا، (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون (51)) صدق الله العظيم.

لولا رحمة الله ولطفه؛ لكنت أعيش في تلك الليلة مأزقا كبيرا، فهو لم يتخلى عني يوما، بيده رزقي ومصيري.

الكابوس

خلال تجوالي في شوارع مدينة **جالا**، طش خبر عاصف بين الناس جلد الفكر والذات، أوعز إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر من عدو يجوب الطرقات، مجهول الهوية، مبهم، هلامي الشكل، عديم اللون، يتأبط الهواء في تجواله وغاراته، يبزغ كالضوء، يخترق الجدران. ينفلق كالرعد، يزلزل النفوس يبيد الأشياء، يتفشى كالنار، يتحول من دار لدار. لا ندرك سر جوهره ووجوده الحقيقي، ربما يكون فايروسا غير معروف، لا ندري أن كان الخبر يقينا أم إشاعة لفقها الطابور الخامس.

مفاد الخبر؛ أخذ الحيطة والحذر من أنتشار مرض خطير معدي غير معروف، يفتك بالحيوان والبشر والشجر، وعلى الجميع تسجيل أسمائهم في دائرة الصحة، لغرض الفحص والإمعان..

يقال بأن المرض يشبه في خطورته خطورة مرض فلاونزا الطيور وفلاونزا الخنازير أو جنون البقر أو الإيدز والطاعون والكوليرا، أو الكرونا، من هذا القبيل الذي صار مشاع كل بضع سنين.

هكذا بدت الفكرة من اختلاق عدو وهمي يثيرون به المخاوف بين الشعوب لغاية في نفس يعقوب، الخبر حث الجميع على ضرورة تسجيل بياناتهم وأسمائهم لدى مديرية الصحة، لغرض الفحص والتنظير وأخذ الحيطة والحذر.

خلال تجوالي في سوق جالا المزدحم التقيت بمجموعة من النسوة، كانت من ضمنهنَّ أمي التي كانت متوترة وخائفة من وقع الخبر المرعب، لقد أدركت في طفولتها همجية الطاعون والكوليرا، لذا بقيت تلك الصورة المشؤومة مطبوعة في ذاكرتها، تلك العدوى التي فتكت بأوصال المجتمع وكشطت الألاف من البشر بلحظة غفلة، إبان الحرب العالمية الأولى والثانية. لذا وجدتها مرتعبة، خائفة.

كان الخبر قد أرهق كاهل الجميع وخاصة تلك السيدات اللاتي كنَّ بمعية أمي، كلٍ منهنَّ تشحذ صاحبتها على الإسراع في أخذ التدابير اللازمة، لتجنب غدر المرض الذي غدا خبره ينتشر كالنار في الهشيم.

لم يتممنَّ عملية التبضع بما تأمل رغباتهن لضيق الفرصة. ما أن سمعنَّ بصعقة الخبر حتى تجهمت وجوههن، عرجنَّ مستعجلات لبيوتاتهن سالمات. أضحت الناس أشبه بالسكارى هائمة في الطرق والشوارع، تركض خلف خيط الامان دون يقين.

كنت قد تركت عمي (أبو زوجتي) يتجول في الأسواق لغاية تخصه، وكنت خائفا لحظتها على زوجتي وأطفالي من عبث المرض، في الوقت الذي حثيت أمي الإسراع في العودة للدار، عسى أن أتمكن من تطعيمها بلقاح ضد المرض في دائرة الصحة.

رفعت سماعة جوالي لأتصل بزوجتي، وأذ بخط الهاتف يشتبك مع خط المدعو سالم الدلال؛ الذي سبق أن أشترى سيارة زوجتي الخصوصية قبل يومين، هادني صوت زوجتي يتردد خلال المكالمة تسأله عن أية إشكالات عالقة، أو ما تبقى من أوراق أو شيء من هذا

القبيل منسية في أدراج عجلتها، لكني وجدته يشحط في استرساله معها، غدا كلامه يأخذ منحا آخرا في غزل وتجرد وجرأة، بات يتطرق إلى الشروع في وصف جمالها ولون شعرها ووالخ من مغازلة مبطنة دون أن يعلن صراحة عن غايته. قال لها:....

- سألوني أصحابي عن ذوائب الشَعَرْ العالق بكشن سائق العجلة (مقاعد السيارة)، لِمَ لمْ تزلها عن أماكنها؟... بقيت صامتا بوجوههم، مخرسا، كأنَّ شيئا ما لثم فاهي، لم أتمكن من قول الحقيقة التي خرمت جدار قلبي وأنهكت خلايا ذهني، تلك التي جعلتني لا أغادر حدود الآه ضمن محيط القدر، رغم بعدكِ لم استطع أن أراعي الحقيقة التي لا أستطع أن أصرح بها إلا لذاتي... لم اكن أتصور ثيمة من ثيمات مباهج حسنك تذللني وتفعل بي ما تشاء، لقد تعلق قلبي بمشاوير حسنك وسحر قامتك. ها أنا أشعر الآن بوعكة شديدة لا أدري مصدرها، لكني في قرارة نفسي متأكد أنها تحمل فايروس هيامي بك. كأني أصبت ببكتريا الجنون، بهوس أصاب مخي، أهجس يدك أوقدتِ شرارة الفتنة في قلبي، وجودك لازم مخيلتي، يمنعني من إزاحة تلك الشعيرات الساقطة من رأسك على مقعدي.
أهجس بتلك الشعيرات تلهمني خيالا لأتجول به في معالم جمالك، إشعاع نجمة تتلألأ في دماسة أيامي، أطياف صوركِ تدور في فلك قلبي، لم أكن أدرك سحر الليل لولا ذلك النور المشع من الخيال، والمنبعث من مصابيح فتنتك.

حينها اشتطت غضبا، بت أزم شفتي، أود أن أقضم روحه بأسناني، لابد من أن أنتقم من ذلك الوغد، في الوقت الذي به عزمت على أن أشل يد زوجتي لاستغراقها بسماع ذلك الوغد. كيف سمحت لنفسها أن يسترسل معها، كيف سمحت له من أن يشخط على سبورتها بطبشور خبثه.

بحثت عن عمي في أماكن تواجده قرب المقاهى الشعبية حتى التقيته يتسكع فيها، كأنه لم يدرك خبر الوباء بعد. سألته:...

- ألم تسمع بخبر الوباء...
- وهل صدقت الخبر؟ أنه مجرد إشاعة..
- أكيد؛ الدولة مهتمة بذلك... على أية حال هل زوجتي عندكم في الدار؟ هل لازالت تحمل غيضا في قلبها تجاهي؟

بات يمازحني ويقول لي:...

- ألا تعلم بأنها سافرت للبصرة...
- دعك من المزاح السخيف وأسمع ما أود أن أخبرك به.....

كنت أنوي أن أخبره بما طرقت أذناي من معمعة سالم الدلال تحت وقع غضبي وانفعالي، ثم تداركت نفسي، بت أبحث عن اليقين في جعب الفكرة والذات الشريدة التي سورت لي ذلك.

عدت لإشاعة الخبر، كون المسألة شخصية بحته، لا تمس سوى العلاقة الجذرية بيني وبين زوجتي، عليَّ أن أمسك بطرف الخيط، علني أجد مخرجا من هذه المعضلة. عليَّ أن أدرك حقيقة المشكلة،

أن أدرك العقدة الملتفة على ساعدها. يجب أن أصل لقناعة قبل أن أقطع ذلك الخيط وتتيه عني الحقيقة.

رد على سؤالي بجد ظاهر عليه...

- أنا لا أمزح معك، صدقني هذه هي الحقيقة..
- إذا دعنا نلتحق بالبيت، هناك العشرات زجوا بهم في المستشفيات وآخرون ودعوا الحياة، المرض يفتك بالناس.

لم يعلق على الخبر بشيء، أبتسم ابتسامة باردة، شعرت به أنه ليس عمي، أنما شيطان يرافقني، يدرك شيئا غامضا، لكنه لا يدرك غموض جزعي وقلقي، حينها صرت أدفع به وهو يتثاقل في سيره أمامي كأنه محتفظا بسر لا يود أن أعرف حقيقته.

بت أجرجر به ويجرجر بي حتى أدركنا شارعا فرعيا زفت به مجموعة من الجنود وهم يسوقون كوكبة كبيرة من المستجدين لمعسكرات الحرب، حينها اندمجنا مع مجموعة كانت تمشي بمحاذاتنا، حتى شعرنا بأنفسنا أصبحنا جزء من تلك المجموعة المساقة.. عندما وددنا أن ننفصل عنها ونبتعد؛ تمسك بنا العريف المسؤول عن تلك المجموعة كغراء الفئران، عبثا حاولنا فك قيودنا عن غراءه، أصر على تسويقنا مع تلك الشلة للحرب. بت أدفع به محاولا أبعاده، لكنه تشبث بنا كمسمار صدأ. فقلت له....

- يا أأنت مجنون، نحن لسنا من ضمن مجموعتك، دقق في قوائمك جيدا.
- بسيطة ولا يهمك، الآن ندرج أسمائكم بها..

وإذ بـه يخـرج من جيبـه قصاصـة ورقيـة، محـاولا تسـجيل أسـمائنا بها.. ها أنتم الأن أصبحتم ضمن القائمة، قولوا لـي مـا هـيَّ أسمائكم، الحرب علـى الحدود والبلد فـي أزمـة ولابد من جمع أكبر عدد من المقاتلين.

صرت أسبه والعن به قائلا:....

- أفهم يا غبي؛ نحن الآن في مهمة أمنية، لا تأخرنا عن عملنـا ألا تفهم؟ وطلبت من عمي بأن لا يذكر له أسمه.

كأن يجب أن أرهبه وأشعره بأننا أناس مهمون، لنا مسؤولية أكبر من مسـؤولياته. كنـت قـد شـعرت بخبـث العريـف حـين ود دمـج أسـمائنا لتكملة العدد في قوائم جرده، ولكنني بفطرتي وذكائي تجردنا منه فـي اللحظة التي واجهتنا موجة بشرية تمضـي باتجـاه معـاكس، تمكنـا من الانزواء خلفها، والتي آوتنا بين ثناياها، ثم اختفينا عن أنظاره.

وبعد محاولة جادة ولجنا في الطرقات مدة ساعتين وأكثر من الـزمن، شققنا خلالها بطون الزحمة في طرق عرجـاء ملتويـة جـراء الفوضـى التي عمت فـي البلد، والتـي باتت تولد من رحـم الفوضـى نفسـها فـي تناسخ وانقسام وتشظي عـائم، جـراء الرعـب المعبأ فـي نفـوس النـاس بسبب خبر الوباء من جهة، والفوضـى الرائجـة من علـى الحـدود من جهة أخرى.

بعد عناء وصلنا عتبة دار عمي المركونـة فـي أحد أزقـة حـي شـعبي يشهق من لدنها روائح نتنـة، تلك الميـاه الآسنة، الطافحـة من بـواطن عيون وينابيع المجـاري المتدفقـة وسـط الزقـاق، جـراء إهمـال البلديـة.

زقاق كأنه وجه عجوز شمطاء مشبع بالحزن والدموع، تشعر بحيطانه الملتوية أشبه بثعبان أنتزع منها جلدها، جراء الرطوبة المشبعة فيها. معظم الأماكن مكشوطة تكشف عن قرميدٍ قديم قدم الخليقة، وواجهات أخرى منتفخة من أثر الرطوبة المعبئة بجصها الملبوخ، زقاق تجوبه أنواع الحشرات من ذباب وبعوض وصراصير ونواميس شتى وكأنه أعد ليكون مختبرا بايلوجيا للوباء.

وقبل أن ندرك محراب الباب واجهتنا جلجلة غريبة أحيطت بدار عمي، مشكلة لم ترتقي هواجس الظن، أنما ولدت من اليقين المباح في البلد.

سألنا الطفل علي أبن الجار عن سر هذا التجمع والدوشة داخل البيت. قال....

- الشرطة اعتقلت هيفاء زوجتك.
- لِمَ؟
- يقولون بأن سالم الدلال مات قبل نصف ساعة بسبب مغص شديد على أثر مرض فتاك مفاجئ، أصيب به من وباء نفذ من سيارتها...
- ماذا تقول؟
- أهله أخبروا الشرطة بذلك، وأتهموا هيفاء بالقضية، وأدعوا بأن الوباء الذي أصيب به متعشق في سيارته التي أقتناها منها.

حينها لم انبس بشفة، كتمت عن غيضي وغضبي، ثم عدت أدراجي لمركز الشرطة أبحث عن رأس الخيط الضائع، في الوقت الذي بت

أفتش على الداء في جسدي، خوفا من أن يصفعني المرض وأنا أهيم خلفه، ولا أجد له بلسم في صحراء ظني.

عدت أدراجي لدائرة الشرطة الكائنة في منطقة الإصلاح، والتي لا تبعد سوى نصف ساعة عن موقعي. جهدت في الوصول قبل انتهاء فترة الدوام الرسمي، وصلت بعد عناء وجهد مضني، حتى شعرت بأقدامي تخورت بالألم... وقبل أن أدخل محراب دائرة الشرطة أستقبلني المفوض نجم الدين، الذي كنت قد أعنته على زواج أبنته البكر قبل أشهر، لذا فهو يألفني ويعني لي جل الاحترام والسؤدد. حيث قال....

- يا أبا نور عد لمشفى الرحمة، أم نور أصابها نزف شديد مفاجئ نقلت على أثره للمشفى.

أصابتني خيبة مرة أخرى، شعرت بانكسار وحزن، على الرغم من الجرح الذي كالته لي، يئست من شفائها، عدت أدراج البيت والشقاء يطاردني. في الوقت الذي به شعرت بانه في داخلي غصة، وفي داخلي كائن مدسوس خرافي يعيش في دمي، بحيث ينتقم من كل شخص يحاول أن يغضبني، حتى لو كان ذلك الشخص قريبا مني. كأني مقبض عليه من قبل سلطان قلبي، أو قرين لي، أو متبوع بالقدر. قد يكون ذلك السلطان جنيا لا أستطيع أن أمنع نفسي عن عبثه، أو ملائكة تجتر حظي ومستقبلي من قيد الهزيمة. حيث ذلك الكائن يبحر معي، يدور في خيالي وهوسي، يتحكم بالذات والانا كيفما يشاء.

راجعت المشفى، وجدت زوجتي ترقد فوق السرير، ابتسمت لي، فرحت بلقائي، حينها علمت بأنها قد تجاوزت الخطر. ما أن لامست يدها يدي حتى تجلى ذلك الكابوس عن ذهني وناظري، وكأني كنت في غفوة سرحان دون أن أعلم، ألتفت يميني وإذ بي أجدها جالسة إلى جانبي على شاطئ البحر... حينها حمدت الله على سلامتي وسلامة أهلي من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. ثم أخذت أردد بعض سور القرآن لتهدئة نفسي وخاطري.

ما غثني هو سرحاني بلحظة شيطانية وزوجتي إلى جانبي، سافرت بي لعالم مجهول، عالم كنت أفكر به بعيد جدا، لكنه بان أقرب من حبل الوريد. هز كياني، جعلني أفقد القدرة على أعصابي.

من تلك اللحظة صرت أكثر حرصا وعناية بنفسي وبزوجتي، أكثر عاطفة ومحبة وألفة وتودد. لقد فسرت هذا الكابوس على أنه إشارة رحمانية نبهتني لخطورة إهمالي، أعادتني إليَّ واقعي، لأعيد التوازن إلى العلاقة بيني وبين زوجتي لمصاف عهدها، لبناء مستقبل سليم خال من العقد والمشاكل.

يقول الله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الروم 21). صدق الله العظيم

الكوب

فينوكر/ 2018

كان أنس لازال يعيش على الفطرة، لم يبلغ رشده، في طور المراهقة بعمر خمسة عشرة سنة، في فترة البناء والترقب، في هذا الفترة الحرجة صاحب شاب من عمره يدعى أحمد الصومالي، كان طالبا كسولا في صفه، جمعتهم صفة الهجرة.

كان أحمد قد أكتشف ذكاء ونباهة أنس في اللغة السويدية والرياضيات والعلوم، لذا التصق به، تقرب منه، جعله صديقه المفضل، صار لا يفارق ظله، خاصة حين وجد فيه منهلا يعينه على إدراك مبتغاه من الدروس التي يعاني منها.

بعد أن آزره الظرف، جمعهم في صف مشترك، أكتشف نوعية خامته الغريبة وصفاء معدنه، أكتشف براءته وقلة تجاربه، وجد فيه اختلافا كليا عن صفاته وصفاة شلة أصدقائه. لذا ود استغلاله في عملية سرقة وابتزاز دون أن يعلمه بالنية...

أما أنس كان قد وثق بصاحبه وثوقا أعمى، سايره على أهوائه في مرافق المدينة دون التشكيك في نواياه وسلوكه، سايره لمجرد الرغبة في إذابة جليد الوحدة التي يعيشها.

كان قد هجس به مفتاحا لسعادته، منظما لأفكاره، بلسما لوحدته، رفيقا لسراطه. وجد ذاته بحاجة لتكملة ما ينقصه من

تجارب، ليعيش حالة تجديد وتغيير بعد أن كان يعتمد على والديه في إدارة سلوكه ونظام حياته، حتى أنه كان لا يتخذ قرارا إلا بعد استشارتي.

مرت الأيام دون تغيير في نمط علاقته بأحمد، حتى أني كنت سعيدا بسعادته؛ حتى انكسرت الجرة ذات يوم، كان ذلك حين طلب أحمد من أنس مرافقته لجمعية الكوب القريبة من المدرسة، مستغلين أحدى الحصص الشاغرة لشراء بعض الحاجيات. في ذات الوقت يشغلون أنفسهم بالتخوير والمرح.

بالطبع أنس لم يمانع طلب صديقه أحمد، حيث وجد في اختياره فرصة لتلطيف الأجواء على حساب وصيتي له بعدم مغادرة المدرسة لأي سبب كان. كان قد أعتبر الأمر كسرا لأبجدية تعهداته لي، بعد أن شددت عليه مرارا الالتزام بها، كي لا يقع في مطبات الفوضى التي لا تعرف حجم تأثيرها. خاصة أبنية المدارس لا تحيطها أسيجة، ولا توجد رقابة مفروضة من الإدارة على التلاميذ، حيث ينتهي دور المعلم بانتهاء الحصة داخل الصف.

حينها دخل في صراع مع نفسه، بين مخالفة أوامري وطاعة صديقه. فمن باب المجاملة وأثبات الشخصية طاوع رغبة صديقه، ذهبا معا لمتجر الكوب برفقة أثنين آخرين من زملائهم أحدهما أفغاني والآخر سويدي. ذهبوا وكل ظنه بأن أحمد يود أن يقتني بعض المستلزمات.

حين دخلوا المتجر كان أنس يتبع أحمد، حاملا على ظهره حقيبته المدرسية، وفي داخل المتجر طلب أحمد منه أن يضع بعض مقتنياته في حقيبته، وبعد أن أنتقى بعض الأشياء همَّ بالخروج دون أن يدفع ثمنها، تاركا أنس يسير خلفه. حينها شك الكاشير (المحاسب) بنياتهم. في الوقت الذي به كان قد تملص أحمد وهرب قبل أن يحقق معه.. فوجئ بشرود أحمد وعدم دفع قيمة الأشياء المنتقاة، لقد أوقعه في مصيدة الكامرة التي رصدت حركاتهم، وسط دهشة أنس. بذلك كبل بسرقة بعض العصائر وشريط حلويات قيمتها لا تتجاوز سبعة دولارات.

ما حصل هو الآتي....

أراد أحمد أن ينفذ عملية السرقة بتحميل أنس وزرها، بعد أن لمس فيه من طيبة وبراءة وغشم، ما يجعله غير منتبه على سلوكيات غيره، مستغلا حقيبته المحمولة على ظهره.. وكان قد أعتبر تلك العملية من وجهة نظره شطارة، لعبة يورط بها زميله..

في الحقيقة لم يكن أنس قد مر بتجارب خبث كهذه، لم يكن سوى قدر جميل تدحرج في طريقي، وددته، احتضنته، تأملته، جعلته حلما جميلا يتغنى به مستقبلي. لم يكن سوى طيرا مهاجرا، سكن هوسي وصمتي، هفا في غربة ظني، عشعش في فكري وقلبي، صار قدري وسري، وقوتي وضعفي وهواني...

كبر الحلم مع مر السنين، صار نطيطا على أغصان وجدي دون رفقة، وحيدا، تأمل الورود البهيجة والرياحين العبقة، أكتسب منها صفاته وسلوكه وطيبته وبراءته، صار لغزا يدور في أروقة ذاتي. صار برعما يمتد على اسطر حياتي، عكفت على ترتيب أحجية ذهنه، اهتممت بتفاصيل حياته، حتى نما وارتقى الألق سلما لليقين، فبان بزهده وعفته نجما ساطعا بين أقرانه.

مع مرور الأيام؛ بان في فوضى الأجواء كشعلة من الطيب والوله، استقطب رفاقه بشذى طيبه وعطره، بلسانه وقلبه وصدقه، أثر فيهم، وتأثر بهم، حتى وجد في كأس تلك العلاقات الآنية شوائب خبث ونوايا مكر وخديعة.

كانت علاقاته شفافة من جانبه، لذا تقربوا منه لشطارته وتفوقه في دراسته. لم يتحسس تلك اللزوجة من تلك العلاقة المزيفة إلا متأخرا، لإندفاعه نحوهم بشدة نتيجة الوحدة التي عزلته، تشبث بهم بنية طرد الكآبة من صحنه، فلم يشم من تلك العلاقات سوى نتن الصحبة وخبث النيات، حتى نغز بأشواكهم لقلة خبرته وتجاربه.

كان ولم يزل قطعة قماش خام بيضاء، لم تتوسخ بالمحيط، لمْ يجلده الزمن، لم تزكم أنفه غبرة الظروف المتعاقبة. بقيت تلك الطباع متشبثة به، بقيت صفاته على ما هي، نجيبة، كريمة، يسودها سحر الخجل، بريئا، سلسا، هادئا، ربما الوحدة كورت طباعه، فبان اليفا، صادقا، يجول بين فكره ولغز اصحابه.

تلك الوحدة رغم قسوتها جردته من عقدة الخبث والرذيلة والأنانية، لما فيها من عطفة غرة، هذبته، جعلت منه صورة ترتقي لمصاف الحلم المراد، منعته من الانزلاق في أزقة العبث والفجور والفسوق وأخذ المنشطات وحبوب الكبسلة، قومت سلوكه، أرشقت قوامه الشخصية بشيء من الصفاء واللين والدين، بعيدا عن المخاشنة والمكابرة. جعلت طينته اللدنة صلصال من العذوبة والرقة، جعلت صبره يطاوع جلد الظرف بقدرية الحالة.

كان قد حاول من جانبه كسر حاجز الروتين، بحثا عن صداقات خارج أسوار وحدته، صداقات كيفما يشاء الظرف، لتبعث فيه طاقة إضافية تكشط ذلك السكون المحيطة به، تنقله لدائرة التكوين والحركة والشخصية، لإبراز مفاتنه.

بتلك الإجراءات خرج عن إطاره المألوف، تمكن من كسر حاجز الوحدة والغربة التي كان يعيش ظرفها مجبرا، كنت أشجعه على تلك الصيغ لتجنب أمراض العصر والتوحد، تلك التي قد تؤدي به إلى العقد. رغبت أن يسلك المسالك الطبيعية لتتفتح أزاهيره بألوان الطيف والتجديد، تضفي على سماته شطر الرقي، تسمو به وبأفكاره إلى المراتب المتقدمة على ضوء الدراسة والشخصية..

كنت أخاف عليه من شزر العقد النفسية، التي لا يدرك مخطرها إذا ما تجرد بسلوكه عن مداهنة المجتمع.... الشيء المفرح به، له قابلية على الاختلاط السريع، كان مهووسا

بالرفقة والصحبة، محبا للتجاذبات والتحاور منذ صغره، كأنَّ هناك من يرشده إليها بالفطرة.

بعد تلك الحادثة أحيل إلى عدالة المحكمة. لكونه قاصرا؛ عضدته المحكمة بمحام صوري، لم يتدخل في شأن القضية بتاتا، رغم اطلاعه عل ملابسات القضية.

بعد أن سقط كالطير في شباك احمد، تكالبت عليه المطارق، على الرغم من أنه لم يلمس تلك الاشياء المسروقة بيديه. طالبه القاضي والمحامي انتقاء أصدقائه بعناية، وأن يتعلم الدرس ولا يساير الخبيثون والمتسولون منهم.

حكم عليه بغرامة مالية قدرها 50 دولارا وتحذير بإنزال أشد العقوبة في حقه في حالة التكرار.

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- نقط الحروف
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- صور مضيئة